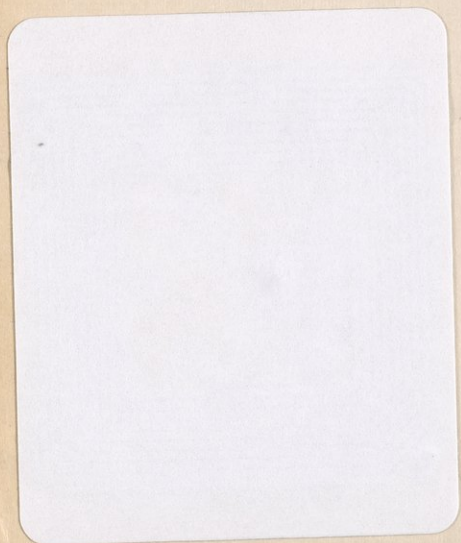
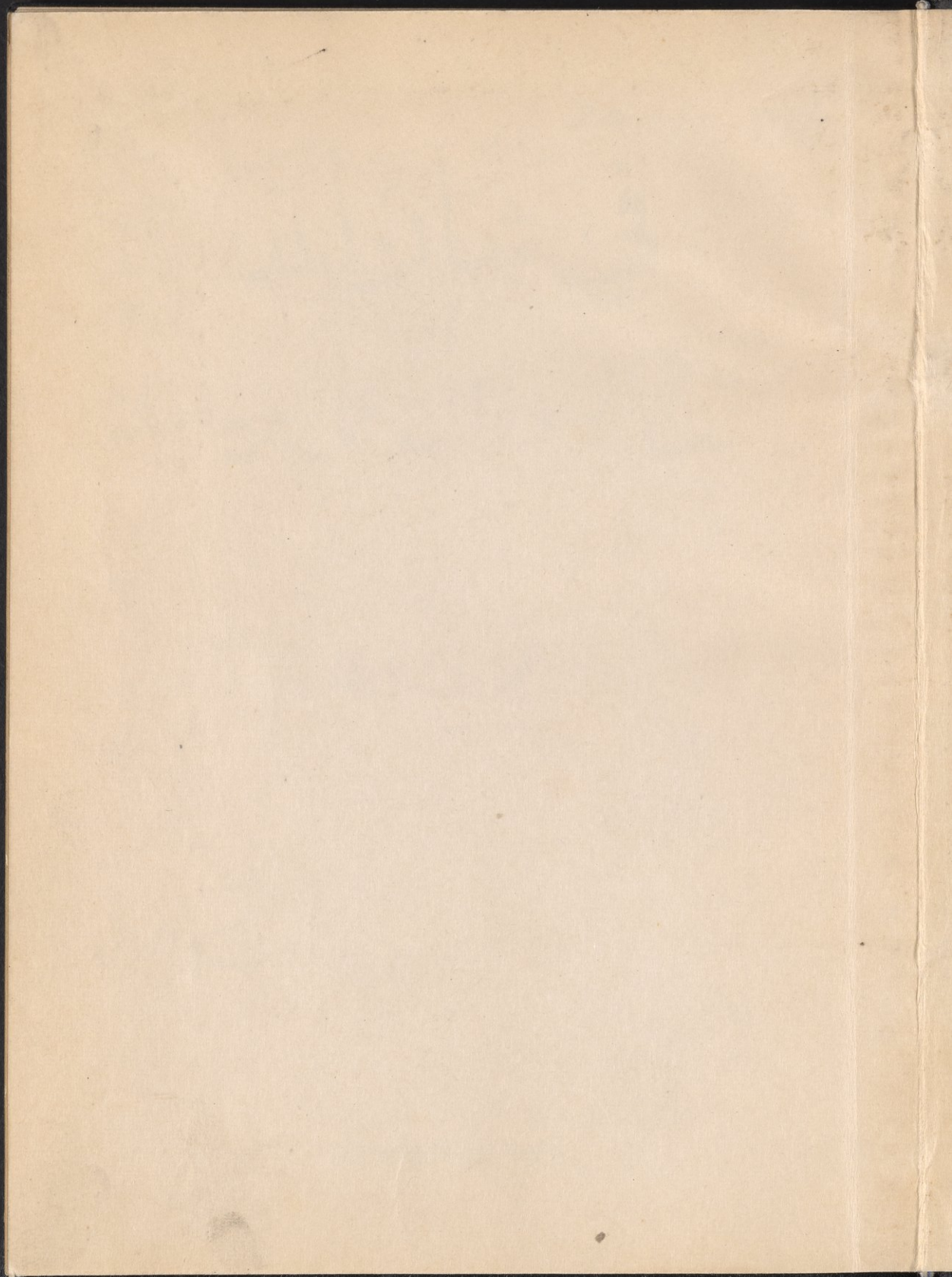


AMERICAN UNIV. IN CAIRO LIBRARY



3 8534 01026 5191





02-B5781

19-11-02

DT
108
J25
1948

AMERICAN UNIVERSITY
LIBRARY

فِي شَأْنِ اللَّهِ

أَوْ
تَارِيخُ السُّودَانِ كَمَا يَرَوِيهِ أَهْلُهُ

تأليف

محمد أحمد البجايري

الناشر

دار الفكر العربي

مطبعة نخبة مصر بالفيالة



كتاب الشريعة

مجلد اول

مجلد

كتاب الشريعة

مجلد

كتاب الشريعة

40258

كتاب الشريعة

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

تقديم

أما بعد فقد طلب إلى صديقي الأستاذ محمد أحمد الجابري تقديم رسالته « في شان الله أو تاريخ السودان كما يرويه أهله » إلى أبناء الوادي الأفاضل الذين يهمهم الوقوف على كل ما يكتب أو يقال عن السودان وعن أهله بحثاً وراء الحقيقة وإرواء لظماً حب الاستطلاع والمعرفة فأحجمت في بادئ الأمر لأسباب عدة منها أني لا أعد نفسي من زمرة الراسخين في العلم الذين أفنوا العمر في البحث والأطلاع والكتابة والنشر حتى تصدروا صفوف العلماء والمتعلمين وبزوا الباحثين والمؤلفين فبعد صيتهم وارتاحوا إلى ما أدركوا من شهرة واسعة اتبع لهم الاكتفاء بتنميق المقدمات لكل كتاب يطبع وأجزاء المقالات في تعريف أصحاب المؤلفات إلى جمهور القراء الكرام . وإن كنت قد نزلت في آخر الأمر على رأي صديقي الأستاذ محمد أحمد الجابري فخرصت على التقديم له كتابه القيم . فانما أفعل ذلك مستحيياً وحسبي شفيعاً لي عند القاري الكريم تلك السنوات العشرين التي قضيتها في

دراسة وتدریس تاریخ القطرین الشقیقین مصر والسودان — وما
وانجزته من بحوث — علی وجه الخصوص فی نفس الموضوع الذی
یکتب فیہ الیوم الأستاذ الجابری وفضلاً علی أن التقدیم لهذه الرسالة
التي بأیدی القاریء السکریم یعد فی حد ذاته متعة وأی متعة . ذلك بأن
الأستاذ محمد أحمد الجابری من الرجال المصریین القلائل الذین قضوا
فی خدمة حكومة السودان سنوات عدة واختلطوا بالسودانیین قبائلهم
وعشائرهم فعرف عاداتهم وأخلاقهم وأدرك کثیرین ممن حضر والوقائع
التي دون أخبارها فی رسالته وكان لروابط النسب والمصاهرة التي ربطت
بینہ وبين الأسر السکریمیة فی القطر الشقیق أعظم الأثر فی أن یرکن
إلیہ السودانیون ینقلون إلیہ أخبارهم علی حقیقتها — و یکشفون له
عن خفايا نفوسهم ویطالعونه علی هواجسهم ویستطون له أمانیهم .

واندمج الأستاذ محمد أحمد الجابری فی أوساط السودانیین اندماجاً
تاماً فتذوق آدابهم وحفظ أشعارهم و (أزجالهم) وعرف ما تنطوی
علیه أمثالهم وأقوالهم من معان لا یدرکها سوى السودانیون أنفسهم
بل أنتهی به الأمر إلی إتقان لهجات ولغات العشائر والقبائل السودانیة
العربیة والزنجیة علی السواء . أضف إلی هذا أن الأستاذ لم تنقطع صلاته
بالسودان وأهله بسبب اعتزاله الخدمة ، بل أن هذه الصلات ما زالت
بفضل الله نامیة وطیلة یقصدہ أفاضل السودانیین عند زیارتهم للقاهرة ،
یتحدثون إلیه فی أخص شئونهم ویمدونه بفیض من المعلومات الصحیحة
عما یجرى ویحدث بالسودان . حتی أصبح الأستاذ بحق بمثابة موسوعة

من الموسوعات التي لا غنى لـكل باحث في شئون السودان وتاريخه عن الرجوع إليها ، والانتقال منها ، وإني لطيب لى أن أذكر في هذا المقام ما سبق أن ذكرته عند تصدير كتابي الأخير « الحكم المصرى فى السودان » أنه كان لارشادات الأستاذ الحكيمه أفضل الأثر فى إخراج ذلك الكتاب فى صورته التى نشر بها . أضف إلى هذا أن هناك كثيرين غيرى حرصوا على الانتفاع بمواهبه فكان الأستاذ محمد احمد الجابرى أحد الجنود الذين أقبلوا على العمل فى خدمة قضية الوادى المقدسة من غير جلبه ولا ضوضاء تحوهم الرغبة الصادقة فى إعلاء شأن الوطن وتحقيق أمانى البلاد المشروعة فى وحدتها المقدسة .

والكتاب الذى بايدينا جديد فى أسلوبه وطريقته ويسد نقصا ظاهرا فى كل ما كتب ونشر عن السودان وأهله . ذلك بان المؤرخين الذين تناولوا قصة السودان ، حرصوا على دراسة الوثائق والأوراق الحكومية وبحث ما كتبه الرحالون والمعاصرون الأجانب من مطبوع ومحفوظ قبل أن يسجلوا وقائع هذه القصة ويحاولوا تفسير دقائقها وهذه جهود حميدة تقتضيهم أن يبدلوها ولا شك اساليب البحث العلمى الحديث . ومع ذلك فاتهم شىء واحد أو قل أنهم أرغموا إرغاما على إغفال ناحية هامة من نواحي هذه الدراسة الواسعة ، هى موقف السودانين أنفسهم من الحوادث التى كانت تجرى ببلادهم وآراؤهم فيها ، وتفسيرهم لها ونظرم إليها منذ أن بدأ السودان يأخذ بأسباب الحضارة والرقى على يد محمد على إلى الوقت الذى اندلع فيه لهيب الثورة

المهدية . وسبب هذا الإغفال واضح جلى فقد عرف السوداني بالذكا
وحباه المولى عز وجل بقريحة وقادة وذاكرة حافظه واعية . فاعتمد
السودانيون على الرواية ينقل الأحفاد عن أجداد والآباء عن الآباء ،
أخبار الوقائع وتفصيلها ، وصاروا يضمنون بتسجيلها فلم يصل إلى
أيدينا سوى توارىخ ثلاثة مشهورة معروفة . الأول كتاب الطبقات
في خصوص الأولياء والصالحين والعلماء والشعراء في السودان لصاحبه
محمد ضيف الله بن محمد الفضلى الجعلى المتوفى في عام ١٨٠٩ والثانى في
مدينة ستار وهو مخطوط ، نسخه كثيرون وأضافوا إليه زيادات
وصلت بحوادثه الى عام ١٨٧١ ميلادية وجاء ما دون فيه بعد دخول
المصريين إلى السودان ، والثالث كتاب السودان المصرى والإنكليز ،
وهو عبارة عن مجموعة رسائل نشرتها جريدة الأهرام الغراء قبل أن
يضم شتاتها كتاب واحد في عام ١٨٩٦ وصاحب هذه الرسائل الشيخ
محمد القباني ويعد سودانيا وإن كان مولدا من أب تركى وأم صعيدية
نزع إلى السودان وعاش طويلا بين أهله وتزوجت أخت له من محمد
أحمد المهدي وقد عمر الشيخ طويلا وما يزال على قيد الحياة « يمكن
حالة حمد في الخرطوم بحرى » وحضر أكثر الوقائع السودانية من أيام
غردون ووقف على دقائق الثورة المهدية وشهد ذبوعها وانتشارها .
وكتاب الشيخ القباني فريد في نوعه لأن صاحبه حاول أن يبرزه في
صورة ظاهرة ما كان يختلج في نفوس السودانيين من عواطف ويجول
في أذهانهم من أفكار وخواطر نتيجة لرد الفعل الذى نجم من تلك

الاجراءات التعسفية التي عمد إلى اتخاذها بيكر وغردون وأعوانهما من
الحكام «الكفار» تحت ستار إبطال الرق والقضاء على النخاسة في
السودان . وقد نجح الشيخ القباني في إظهار العلاقة بين ذلك كله وبين
ظهور دعوة محمد أحمد وذويوع المهديّة في السودان ولعل أهم ما يسترعى
النظر في كل ما كتبه الشيخ القباني . أن السودانيين كانوا يعتقدون
أعتقادا جازما بأن الانكليز ، والآنكليز وحدهم هم سبب كل تلك
الكوارث التي نزلت بالسودان وأهله وأنهم أصحاب تلك المؤامرة
الشائنة التي انتهت بقيام الثورة ، وإرغام مصر على إخلاء القطر الشقيق
حتى ينفردوا هم بحكمه ويتوصلوا إلى إنفاذ مآربهم في تلك البلاد على
حد قوله .

وقد حاول الأستاذ محمد أحمد الجابري في كتابه الذي بين أيدينا ،
أن يكمل في الحقيقة رسم تلك الصورة التي حاول الشيخ محمود القباني
رسمها منذ نيف وخمسين عاما ذلك بأن الشيخ اختص كل مقالاته تقريبا
بذكر حوادث الثورة المهديّة الأولى فلم يعن بذكر تفصيلات ما كان
يلقاه الجلابون وسائر الأهليين من عنث وإرهاق على يد السير صمويل
بيكر وخليفته غردون في مديرية خط الاستواء بسبب ما اتبعه كلاهما
من خطة مصادرة الأموال والأرزاق وسفك الدماء وإزهاق الأرواح
ثم ما فعله غردون نفسه عند تعيينه حكامدا للسودان أي حاكما عاما أو
عند حضوره لتنفيذ سياسة الإخلاء المدبرة فأنبرى الأستاذ الجابري
ليبين الأثر العميق الذي أحدثه ذلك كله في نفوس الأهليين . وفضلا

عن ذلك فقد اجتمع لدى الأستاذ الجابري من أقوال السودانيين أنفسهم الذى شهدوا وقائع مطاردة الجلايين والأهلين الوادعين المساميين فى كردفان ودارفور وبحر الغزال وعاصروا حوادث إعدام سليمان الزبير وقتل الصباحى وهارون ابن ابراهيم سلطان دارفور ما جعله يجزم بأنه لولا هذه المذابح لما علا شأن المهدي فى السودان ولما انتشرت المهديّة فى ربوعه لأن استشهاد الزعماء والقادة أمثال سليمان والصباحى وهارون ثم احتجاز الزبير رحمه باشا فى القاهرة — كان كل هؤلاء موضع ثقة السودانيين العظيمة ، سرعان ما أخلى الميدان فى السودان لظهور محمد أحمد ، وكان من عوامل الاغراء القوية التى دعت الفقيه الامام لاعلان أنه المهدي المنتظر وكما كانت رسائل الشيخ محمود القباني تنظمها فكرة واحدة هى مسعى الانكليز فى تاليب السودانيين على أخوانهم المصريين ونشر المفاسد فى البلاد وإرغام مصر على إخلاء شطر الوادى الجنوبى فان كتاب الأستاذ الجابري يقوم على فكرة ظاهرة قد تفسر حقيقة هذا السعى أو هذه المؤامرة الانكليزية هى أن سياسته إلغاء الرق وإبطال النخاسة باستخدام السيف والنار تحت ضغط الانكليز ، كانت سببا قاطعا فى إثارة الحقد ضد حكومة الخرطوم وإشعال نار الثورة . ولما كان المهيمنون على هذه الحكومة من الاورباويين وأهل الليفانت الذين عرفهم السودانيون باسم « الكفار » فقد سهل أن تصبغ هذه الثورة الخطيره بصبغة دينية ، وأن يدعو محمد أحمد إلى الجهاد فى سبيل

الله أو « في شان الله » هذا النداء الذي اختاره الأستاذ الجابري
عنوانا لكتابه .

وأما مبلغ توفيق الأستاذ في إبراز هذه الحقائق فإن ذلك من
شان القارئ الكريم أن يفصل فيه وحده بعد قراءة هذه الرسالة
الممتعة وحسبي أن اختتم هذه الكلمة فاقول أن الأستاذ الجابري قد
أسدى للتاريخ خدمة جليلة في هذه المحاولة التي أراد أن يكشف بها عن
أراء السودانيين أنفسهم في أسباب ظهور الإمام محمد أحمد واندلاع
هيب الثورة المهدية .

محمد فتواد شكرى

القاهرة سبتمبر ١٩٤٧

توطئة الكتاب

لهذا تاريخ السودان كما يرويه أهله أئمة أئمة

« في شأن الله »

ترديدا للصيحة الداوية التي عمت السودان وترديدا لقوله تعالى
« إن تنصروا الله ينصركم ، فما كاد الامام محمد أحمد يقولها باللغة المحكية
حتى خلبت الأذهان وانسابت في النفوس وصارت تجرى على كل لسان
وبفعل الحوادث والاحداث وعوامل الزمان والمكان ، اثار
النخوة في النفوس وصار الكل من « الانصار » — انصار المهدي —
يرردها فكانوا اشبه بنهر طفي وفاض ماؤه من فوق الجسور فاغرق
الحقول وخرب المزارع ولم يبق اندفاعه شيئا أمامه .

وهذا التاريخ ما هو الا نتيجة لاقوال صادقة . وثمره اختبارات
شخصية دقيقة ، تحملت في ضم شتاتها مشقات ، وعانيت في الوقوف
عليها صعوبات ، فقد استقيتها من رجال ميامين كانت لهم مكانة مرموقة
بالاجلال في عهدى « التركية السابقة » و « المهدية » .

ولما كانت اقوالهم تفيض اخلاصا وصدقا — بما لم تستوعبه

الكتب ولا يمكن أن يلم بها أى مكتوب ، فقد اختزنتها وراعتها فى حكمة
وتقدير حتى أن لى أن ادعها تخرج للناس ليرى — أبناء هذا الجيل —
رأيهم فيها : سائلا المولى عز وجل أن يوفق الحاضرين لما وقفت دونه
جهود السابقين .

وتاريخ السودان هذا بسيط يسرد الحوادث ويصف المآسى
لا القيمة خاصة به بل تبعا لما اثاره فى نفسى من احساس وفى ذهنى من
تفكير وهو يعنى ما طرأ على السودان فى الفترة من سنة ١٨٦٩ الى
سنة ١٨٨٥ ميلادية من حوادث واثار ، وخواطر وافكار ، ووجدانات
ومشاعر ، وافعال ومآثر . ومشاهد ومناظر . وتراث الاوائل للواخر
لتعبد الغابر للحاضر ، وتصف اولى العزم ومآثرهم ، ومناقب ذوى الفضل
ومفاخرهم ، فى زمن فتن ثائره ، وخطوب طائرة ، وحروب دائرة .
وصروف جائرة ، ومكارم باثرة ، ونفوس حائرة لذا ارجو
القارئ الكريم أن لا يحاول تحميل هذه الرسالة اكثر مما تحمل ويتقبلها
على علاقتها صورة من نفس صاحبها يقدمها الى اقاربه وأصدقائه فى
السودان وإذا استطعت أن اصحبهم فى رحلتى الفكرية . وأخفف
عنهم ملل الحاضر بمآسى الماضى . فقد نجحت فى أطيب المهمات الى
نفسى . أن ارتاد معهم ماضيا يشعرون فيه بشعورى ويفكرون
فيه بتفكيرى .

ولست أدعى أنى مورخ فان هذا لقب اسمى من أن أصل إليه . . .
ولكن دعى الفت النظر الى اننى فى الستين من عمرى وانى صرفت

نصف هذا العمر في السودان . كان لي الحظ أن تزوجت منه ولى أولاد وبنات وصلة رحم بين أطيب العشائر واکرم العائلات . وقد درجت على حب السودان والاعجاب باهله وقضيت أهم أدوار حياتي في ربوعه : بين الشمال والجنوب . والشرق والغرب ، فتمكنت في أواصر الحب والإعجاب بأهل السودان : فلما عدت إلى « الريف » أى مصرنا العزيزة استحال الحب والإعجاب إيماناً بكل ما هو سودانى .

كانت حياتي في السودان متسعة الآفاق متشعبة الأطراف وأن قلبي ليفيخ بآلاف الذكريات الكريمة ، وحافظتى لتعى الأحداث العظيمة . ومن العسير أن يعضغ المرء ذكرياته ثم يجترها كما يجتر الجمل علفه أمام ما تبديه الجرائد الانكليزية والصحف الانفصالية من التشنيع بماض مصر في السودان — حيث يقولون أنه كان عهد استبداد واستعباد ورشوة — فكانت هذه الأسباب — كما يدعون — بواعث الثورة المهدية .

ومن العجب أن أكثر الباحثين والمفكرين في هذه الأيام الذين تناولوا تاريخ السودان . لم يكتبوا عن بواعث الثورة المهدية كتابة وافية بل تركوا هذه الناحية دون أن يوفوها حقها من البحث والدرس مع أن الثورة المهدية كانت — بلا مرأى — السبب الرئيسى لذلك التحول الذى حدث في مقدمات السودان والذى لولاه لما كانت تلك المحنة التى نعانيها اليوم .

ومما يؤسف له حقاً أنه منذ تدخل الانكليز في شؤون مصر جرت الاقدار بأن تظل كثير آمن وقائع التاريخ المصرى — السودانى مجهولة أو أن

كتب التاريخ ظلت تجدد فيما دأبت على إذاعته الأخبار الرسمية معينة لا ينضب تعتمد عليه في سرد وقائعها فاشتملت هذه الكتب لسوء الحظ على أشياء كثيرة لم يكن يذنها وبين الحقيقة أية صلة .

نعم كتبت كتب ودونت رسائل عن السودان في الفترة التي تلت ظهور النفوذ البريطاني ولكنها قالت أشياء تخالف ما جرت به الحوادث وبعبارة أخرى أن هذه الكتب وتلك الأسفار كانت محاطة بالعناية والرعاية ومتأثرة بالإيحاء والاملاء بفعل المهيمنين على مجرى الأمور فامتلات الكتب وفاضت الأسفار بالطعن والتشويه وصب أفضع اللعنات على الأتراك والجلالين والنخاسين والأنصار والدرأويش - أنصار المهدي ودراويشه كأنما هؤلاء كلهم مخلوقات من طينة أخرى فكانوا في نظر أصحابها عمالقة طغاة ونحن أبناؤهم الفاسدون ، وما كانوا إلا رجالا مثلنا من الآباء والأجداد - انحدرنا من أصلابهم بل هم الذين أوجدوا ما في الأحياء من الأفكار والمشاعر وإليهم ترجع أسباب حركة أهل هذا العصر - فالأمة مصيرة بتأثير أمواتها أكثر مما هي مصيرة بتأثير أحيائها .

نقول أنه لما استيقظ الوعي القومي في مصر وفي السودان وأراد الكتاب والمحدثون أن يكتبوا عن الفترة من سنة ١٨٦٩ إلى سنة ١٨٨٥ لم يجدوا سوى تلك المدونات المغرضة يتلمهون فيها وينقلون ما حوته بطونها فجاءت كتاباتهم ملأى بالسباب - من حيث لا يشعرون - والخط من شأن أولئك الآباء والأجداد ثم صاروا يعدون أعمال المعتدين من الظلمة والطغاة كأنما هي أعمال انسانية تدفع أصحابها الرأفة والرحمة ببني الإنسان فكانت

معرفتهم بالسودان مستمدة من الكتب التي نشأوا وشبوا على قراءتها فحسب
ولم يكن مجرد منع بيع الرقيق وجلبه ومصادرته في أعالي النيل المسألة
التي أثارت السودانين ، بل الذي أثارهم وسود الضياء في عيونهم هو
مصادرة الرقيق المولد والموجودة في حوزة أسياده . وهذه المصادرة أصبح
السودان بمثابة عربة بدون عجل أو كطير بلا ريش - فقد ظل الحال
ساكنا مدة وجود صموئيل بيكر في خط الاستواء وفي أثناء مأمورية
غردون كذلك ولكن بمجرد أن صار تنصيب غردون حاكما عاما من سنة
(١٨٧٧ إلى سنة ١٨٧٩) بعد أن كان حاكما وحسب على مديرية خط
الاستواء . لم يلبث أن عانى السودانيون على اختلاف طوائفهم من
الاضطهاد والشدة والضييق والجوع والفقر ما لم يسبق له مثيل في كافة
العصور وذلك بفضل أساليب العنف والشدة الصارمة التي اتبعها غردون
من أجل تحصيل الطلبة أي الضريبة ومن أجل القضاء على الرق والنخاسة
بالسيف والنار في ربوع السودان .

وإذا جاز لغردون وصنائه من الأجانب قتل سليمان الزبير وأعمامه
غدرًا في بحر الغزال وهارون الرشيد في دارفور والصباحي في كردفان
وقبيلة سلم في النيل الأبيض بتهمة أنهم عصاة أو متمردين أو جلافة
من تجار الرقيق . فما ذنب النساء والأطفال ؟ ما ذنب اليتامى والأيامى
الذين قتل آباؤهم ورجلهم ؟ ما ذنب هؤلاء حتى يساقوا ذرافات من دارفور
إلى كردفان سوق الأغنام حفاة عراة - وأي قانون وأي عدل يسوغ
لمثل غردون وصنائه من غلاظ القلوب أن يعملوا على اقفار البيوت

من أهلها وانتهاك حرمتها كما فعلوا في دارفور وغيرها من البلدان !
رأى العرب — عرب السودان — بعدما دهمتهم المصائب وتوالت
عليهم النوائب فهم وصلوا إلى حالة من الخطر لم يسبق لها مثيل في أخرج
الآزمات فما لبثوا أن لموا شعثهم وصحوا مما أصابهم من الذهول ثم وثبوا
وثبة الأسود دفاعاً عن كيانهم وكيان أممتهم مفضلين الموت في سبيل الحياة
على الموت أذلاً مهانين .

وعلى ذلك فقد نجح غردون في إيجاد الثورة بما هيأ لها من بواعث
وقدم لها من موجبات ولولاه — أي غردون — لما كان المهدي على حد قول
(سديني لو) في كتابه « مصر في دور الانتقال » إذ بعد أن نعى (سديني لو)
على غردون تسرعه في محاربة الرق واندفاعه الجنوني في إبطاله فوراً دون
إمهال كتب (في صفحة ٦٨) ما نصه :

« لا شك عندي في أن الحرب الصليبية التي شنها غردون على الرق ،
« بلا هوادة . كانت الوسيلة المفضية إلى الغرض المقصود : وهو قيام
« الثورة ضد الحكم المصري . فلولا غردون لما كان المهدي ذلك أن غردون
« ما لبث أن أضاف إلى الاستياء الناشئ من تصرفات موظفي الخديوى
« تصديه متعمداً للصالح الخاصة باندفاعه الجنوني ضد حيازة الرقيق ،
« مما يعتبر اعتداء على الملكية الذاتية في أخص خصائصها وأقدس أسسها ،

وفضلاً عن ذلك فقد عني باظهار هذه الحقيقة أحد معاصري غردون
ومن عملوا فترة من الزمن تحت إدارته هو الضابط الأمريكى شاليه لونج
بك في كتابه « مصر وأملها الضائعة »

« إن أقاليم مصر الجنوبية قد سرقت من مصر لأسباب في غاية ،
الخطورة والأهمية ، ومصر لا تستطيع أن تتخلى عنها واني لاعيدن »
« القول مكرراً بأن مصر . دون غيرها . هي التي يتوفر لديها - داخل »
« حدودها الخاصة - شعب يصلح صلاحية تامة لخدمة هذه الأقطار »
« الافريقية وإلى هذا الشعب - لا إلى البعثات الاجنبية - يجب أن »
« يتجه عاهل مصر وكل محب للجنس البشرى . »

« وإذا شامت العناية الالهية أن تسعد اقاليم افريقيا الوسطى »
« بوسائل انسانية فان هذا الهدف لا يمكن تحقيقه إلا بواسطة الشعب »
« المصرى وعلى يده وحده يقوم الاصلاح . »
« حقا أن السودان لا يهدأ له قرار . ولكن هذا القلق ليس الا »
« شبحاً لا يلبث أن يختفى غداة جلاء الانكليز . . . فان بقاء الانكليز »
« وحده - في مصر - يكفي لتغذية هذا القلق . »

هذه الحقيقة التاريخية التي نشرها امريكي محايد عقب الاحتلال
الانكليزي لمصر والسودان — بفترة قصيرة — لا تزال تلفت النظر بعد
مضى نصف قرن تقريباً كأنما قد قيلت بالامس فقط .

ولاجل اتمام البحث واستكماله وتناوله من جميع اطرافه ، رايت
أن أقدم الكلام عن الحكم المصرى المعروف « بالتركية السابقة »
عن الكلام عن بواعث الثورة المهدية : لأننا اذا اغفلنا ذلك
وتكلمنا عن موجبات الثورة ودوافعها . كما استقيناهما من افواه أهل
السودان — نكون كمن بدأ يشهد تمثيلية بعد أن فاتته منها بعض
فصولها الأولى

ولا بد لي في الختام من ابداء كلمة شكر واجلال اهديهما إلى المؤرخ
الطائر الصييت العلامة الدكتور محمد فؤاد شكرى أستاذ التاريخ بجامعة
فؤاد الأول لتفضله على بمقدمة جعلتها قلادة في جيد هذه الرسالة . وقد
ضاعف جميله بما أسدى إلى فيها من الثناء . وما أبداه من الحفاوة
برسالتى مما أملاه عليه جميل فضله وخالص حبه للسودان وأهله وأن
مكانته السامية في عالم التاريخ وشهرته الذائعة في أندية الأدب لتزيد إلى
ذلك الفضل جمالا وهذا العطف إجلالا .

وأقصى أمانى أن تتحقق أماله وأمالى في مستقبل السودان وأن تتم
الوحدة بين الشطرين للعمل على خلق جيل يشعر بالحياة الحرة متمشيا
نحو المطمح الخطير مع النواميس الطبيعية على ادماج الوادى من
الأسرة المتحضرة العالمية .

ومما يطيب لى أن اعترف بالارشادات القيمة التى لقيتها من أصدقائى
الافاضل حضرات الأساتذة محمد على محمد وكيل الرى المصرى فى
السودان ومحمد خليل مترجم تركى الديوان العالى وحسين منصور
بمجمع فؤاد الأول للغة العربية كما أشكر لصديقى محمود افندى
عبد المنعم أمين مخازن الإمتحانات بوزارة المعارف لما بذله من جهد
ومعونة صادقة فى تصحيح البروفات وإعدادها للطبع . جزاهم الله عنى
خير الجزاء ؟

الفصل الأول

التركية السابقة

« فتح السودان بناء على دعوة من أهله. ضم السودان لمصر واعتباره وحدة مشتركة. تقدم السودان نحو المدنية والحضارة وال عمران . اشتراك الأهاليين في الحكم »

يسمى السودانيون المدة التي سبقت تدخل الانكليز وفيها الثورة المهدية « عصر التركية السابقة » وهو يبتدىء من عهد محمد علي باشا الى عهد توفيق باشا

ولم تكن الأسباب التي أفضت في جوهرها إلى ضم السودان لمصر طلب المنفعة أو مجرد التجارة أو السيطرة والشهرة أو الاستغلال بل كانت للروابط الطبيعية والحيوية والقومية والسياسية وروابط اللغة والدين والدم هم الأسباب التي دفعت محمد علي باشا دفعا لفتح السودان وإلحاقه بأملاكه المصرية.

على أنه توجد إلى جانب ذلك أسباب أخرى هامة هي أن حكومة سنار كان يعمها الخلل والفوضى والفساد حين ذاك فأوعزت إلى الملك نمر أن يبطش بالملك بشير عمدة بلاد الجعليين فلما أدرك الأخير أن لا محيص من هلاكه ونزع الرياسة من أهل بيته فر إلى مصر عن طريق

عظموه أبو محمد وذلك في أوائل ١٢٣٢ هجرية لاجئاً . ذلك لأنه ليس
للسودان مدخل ولا مخرج خلاف مصر فهي حصن السودان الذي
يحتجى فيه المحتامون ويلجئون إليه هرباً من طغيان الطغاة وعسف
المتعسفين .

وكان محمد علي باشا قد علم بقدوم الملك « الملك » بشير واد عقبه
منذ حلوله في الحدود المصرية فأوفد جماعة من حاشيته للقائه والترحيب
به باسم الحكومة المصرية وكانت مقابلة باهرة شائقة طار لها بشير
وأتباعه فرحاً فقام من بينهم رجل ينشد الأناشيد بلغة السودان المحكية
وأنشده كلاماً مدح فيه الملك بشير وهنا مصر بقدمه فقال :

« ولاك مقهور ولاك منهور : وساكت بطرجيت شاكي

» وكم تلبا كبير منك يبيض ويكاكي

» سلام عليك يا مصرنا العزيزة

» الليلة مكننا جاكي . »

وتفسيرها أن المادح يقول للمدوح « أنك إلى حين خروجك من
بلدك لم يصبك قهر من أحد ما ولا انتهرك أحد ولمكنك حذرت من
وقوع ذلك فحملتك شهامتك وعزة نفسك على أن تتوق ضياء وربما
استهدفت له نفسك الكريمة في المستقبل وأنت طالما قهرت عدوك في
ميادين الحرب حتى أنه كان يستغيث من بأسك ويصيح كالذجاجة عندما
تبيض وقد استقبلتك مصر بما يليق لمثلك من الإكرام والاحلال ولا
غرو فإنها البلد الأمين العزيز المشهور وإلى مليكها الملقب بالعزيز
ونخطب منه انضوانها تحت لواء ملكه السعيد .

وقيل أن هذا الكلام فسر للمغفور له محمد على باشا بالتفسير
الآنف الذكر فسر سرورا عظيما وغمر الوفد ولا سيما رئيسه بصنوف
الحفاوة والتكريم .

وبعد مفاوضات طويلة لب عاهل مصر دعوة الأريحية وأدى رسالة
الشهامة نحو أبناء الوادى من أهل الجنوب خير أداء ولما أن كان مبتغى
محمد على الخيرى المحض المجرد من فساد النية والمنزعه عن مطامع النفس
كما أثبتته الحوادث قرأه على إنفاذ حملة مؤلفة من ٥٤٠٠ رجل من
العساكر إلى السودان عن طريق دنقله بقيادة ولده الباسل الأمير
إسماعيل باشا وألح عليه بأن لا يأتى أمرا بغير مشاورة رفيقه الملك بشير
ودعقيد فسارت الحملة وما بلغت أرض النوبة حتى تلقاها السكان
بالخضوع والطاعة وعندما بلغت دنقلة الجنوبية أبدت قبيلة الشايقية
مقاومة ظاهرة انتهت بانتصار الجنود المصرية فى معركة كورتى ثم تابعت
سيرها حتى بلغت الخرطوم وخضع لها الملك نمر عدو دليل الحملة
الملك بشير .

وقد أكد معاصرو هذه الحوادث من أهل السودان ومن نقل عنهم
أن محمد على باشا كان يكتب إلى ابنه الأمير ورفيقه الملك بشير كتبا
واحدة وقد أقسم فى كتاب منها بأنه لا يفضل أحدهما على الآخر وأنها
سواء عنده فى الحنان الابوى وختم كتابه بقوله « وهذا حكمى على جميع
رعاياى المخلصين »

وبعد فتح مملكة الهمج بخدافيرها قام الدفتردار من أسوان بنحو

خمسة آلاف جندي إلى كردفان عن طريق دنقلة وكانت كردفان يومئذ تابعة لمملكة دارفور فأخضعها بعد إلتصاره على صاحب الشأن عليها المقدم مسلم في موقعة بارا وبعد أن أخضع إسماعيل فازغلي وأستتب له الأمر في سنار شخص إلى مدينة شندي الواقعة شمال الخرطوم ونزل ضيفا على الملك نمر وكان عدوا للملك بشير كما أسلفنا ويتميز غيظا كلما رأى فوز عدوه وماوصل إليه من منزلته الرفيعة في الحكومة فلما تقرر جمع الخراج وطلب الأمير الخراج فتظاهر بالقبول والموافقة ولكنه أضمر في نفسه السوء وبعد أن جلس معه حتى انتصف الليل وانصرف الناس إلى مضاجعهم عمد النمر إلى إشعال النار في القش الذي كان قد جمع حول المنزل فمات إسماعيل اختناقا ومات معه مائة مملوك وفر النمر إلى بلاد الحبشة حيث مات بها . أما اهله وذرايره فقد عفى عنهم محمد علي باشا في آخر الأمر فعادوا وسكنوا القضايف — وقد شق على محمد علي باشا أن يعدم رعاياه كما عدم ولده وحرص الباشا على إنشاء الحكومة الأبوية الصالحة التي ترفع شؤون السودانيين وتنهض ببلادهم إلى مصاف الأمم المستحضرة . وآية ذلك تلك الاصلاحات العظيمة التي تمت على أيدي حكمادارية النظام في القطر الشقيق ، فقد كان السودان قبل الحكم المصري يتألف من عدة أقاليم مختلفة ومتشعبة بعضها مع بعض تعيش بها قبائل وبدنات متباينة ولا يربط بينها رابط لئلا منها « ملك » أي « ملك » يحكمها حكما استبداديا فكانت الفوضى والحروب منتشرة في السودان وتجري مجرى العادة بين القبائل والعشائر

فمع أن القبائل كانت تتجاور أحيانا فإنها كانت تعيش وكل قبيلة منها في حدود « سبرها » أى في حدود عاداتها التقليدية الموروثة : فهذه قبيلة تمارس الزراعة وأخرى تجاورها ولكنها لا تزال تجمع الطعام جمعا بما يروق لها من وسائل أخرى فلا تكلف نفسها مشقة الزراعة وهذه قبيلة تحرم بعض الطعام بينما تحله قبيلة أخرى تجاورها وهكذا . فمع أن الجميع يتجاورون ويختلطون ببعضهم بعضا إلا أنه كان لكل قبيلة « سبر » يجعلها تحب أو تكره ما لا يحبه أو يكرهه غيرها .

قامت حكومة محمد على بالقضاء على هذه النقائص وأقامة حكومة منظمة ربطت إجمالا بين الجميع في وسائل عيشها وطرائق حياتها . ثم قضت على تلك الفوضى الناشئة فأنشأت نظاما إداريا من الطراز الأول على غرار ما كانت عليه مصر حيث قسمت السودان إلى مديريات وجعلت على رأس كل مديرية مديرا وقسمت المديرية إلى مراكز على كل مركز مأمور من أهلها يستمد سلطته من مدير المديرية وقسمت المراكز إلى « حلال » أى قرى على رأس كل حلة شيخ كرئيس رسمى مسئول أمام الحكومة وكان لهذه الأنظمة أثر كبير وجاءت خير شاهد على ما تم من اصلاحات غرضها تقدم أهالى السودان ورفاهيتهم فأثارت في نفوسهم الميل إلى الحياة المستقرة وفضلا عن ذلك فقد ساعدت الحكومة الأهالى على بناء دورهم « بالجالوص » والطين والطوب والأخشاب بدل القش والغاب . ونمت الزراعة فسكن كل مواطن في مكان لا يبرحه وأصبحوا مزارعين لهم مساكن مستديمة بعد أن كانوا بدو يرحلون

من جهة إلى أخرى وكان يمثل الحكومة في مختلف النواحي شيخ الحلة الذي يرجع إليه في المنازعات والمشاكل المحلية .

وأحضرت الحكومة من مصر إخصائين من العمال لتدريب الأهالي على الزراعة والصناعة . وأخذت زراعة القطن وحلجه ونسجه إلى دمور تنمو وتزدهر وزرعت التيل والكتان والنيلة وأسست مصانع ميكانيكية للنسيج وأحواضا وخوابي للصباغة واستخراج الأصباغ النباتية كما استخرج الألوان المعدنية كالحرته ، أى أكسيد الحديد لتثبيت الأصباغ وهى المعروفة فى مصر بالزاج الأخضر وما تزال آثار هذه المصانع باقية إلى الآن فى كسلا وسنار وكركوچ وشندى والجزارف والبجراوية والكاملين ورفاع وغيرها . وكانت مصر تصدر سنويا ما يقرب من ثلثمائة ألف رطل نيلة للصباغة تصدر للخارج وذلك قبل اكتشاف الإنلین . فسارت البلاد قدما فى سبيل الحضارة والتقدم كما أنشأت الحكومة المصرية مدارس ومعاهد للتعليم وكان رفاعة بك أول ناظر للمدارس السودانية قبل أن يكون ناظرا أو وزيرا للمعارف المصرية .

ومما يدل على أن الحكم فى السودان كان حكما مصريةا سودانيا عادلا من البداية باعتبار أن مصر والسودان قطر واحد ضمن نطاق مشترك حتى النهاية ساد فيه الأمن والاطمئنان وكثر الخير وعم الرخاء وتساوى الناس فى الحقوق حتى أن العامة صارت تترنم بالقول المأثور وتغنى بمصر ميعون سعيد .

« اترك علمونا الحديث وابسونا القميص »
« فتاوى ياقاضى السلاوى اللى عرب الشجر أصبح تركاوى »

وصار الحاكم التركى كما كان يسمونه يحجب البلاد من أقصاها إلى
أقصاها بدون حرس يحرسه أو يحميه بل يستقبل أينما حل ضيفا كريما
بالحفاوة والترحاب

وفى سنة ١٨٥٧ سافر سعيد باشا لزيارة السودان وكانت زيارة
موفقة ومباركة ذلك بأنه أمر بإجراء إصلاحات هامة منها أن تصبح
الخرطوم ومديرية سنار والجزيرة مديرية واحدة على أن تكون كل
مديرية منفصلة عن الأخرى وترجع فى أحكامها إلى والى مصر وهذا إلى
جانب تخفيض ضريبة الأتيطان الزراعية وضريبة السواقي ومنع الجند
من جمع الضرائب وإناطة ذلك بمشايخ الحلال بعد الحصاد لا قبله وقد
أمر سعيد باشا بعقد مجلس فى الخرطوم للنظر فى راحة الأهالى من بدو
وحضر يتألف من جميع المديرين وأعيان البلاد ومشايخها هذا إلى أنه
ألغى الضرائب المتأخرة وسن القوانين لجمع الضرائب وأمر باعطاء
« سرkia » لكل مزارع بيده ليدفع ما جعل عليه من الضرائب على
أقساط فى السنة وكلها دفع قسط قيد ذلك فى السركى الذى بيده كما قيد فى
يومية الصراف وجعل من الأهالى مديريين ومأمورين ونظار أقسام
ومعاونين بمرتبات شهرية من الحكومة وأمرهم بلبس الملابس « العثمانية »

مثلهم كمثل الأحكام الأتراك لا فرق بينهم ولا تفاوت ثم أصدر عفوا شاملا عن خلفاء و الملك نمر ، الذى أتهم من قبل فى قتل الأمير اسماعيل بعد أن تبين له ان المؤامرة التى حيكت لاغتيال الأمير لم تكن من صنع نمر وحده بل اشترك فى تدبيرها كذلك المماليك الذين غادروا مصر بعد مذابح القلعة وسافر اللاجئون إلى السودان . فكان من أثر هذه الإصلاحات أن حسنت الأحوال وازداد اطمئنان الأهالى للحكومة الأتورية الجديدة وثقتهم بها وحبهم لها . وكان مما زادهم يقينا فى حبها عليهم ان حكومة القاهرة ظلت يقظة ساهرة تأخذ بالشدة كل من حدثته نفسه من الأحكام والمأمورين بالخروج عن الطريق المستقيم والدليل على ذلك انه ما أن اتهم ممتاز باشا احد حكامدى السودان فى عهد الخديوى إسماعيل بالظلم والرشوة حتى امرت حكومة القاهرة بسجنه فى سجن الخرطوم والتحقيق معه فيما نسب إليه . واسطة مجلس مشكل من السودانيين والمصريين ولم تشفع له خدماته النافعة فى السودان الشرقى قبل تبوئه منصب الحكمدارية ولولا ان عاجله الموت وهو فى سجنه لحوكم وحكم عليه جزاء وفاقا إذا ثبتت إدانته .

وكان لتلك الخطة الحكيمة التى سار عليها الولاة والخديويون المصريون من اجل تدريب السودانين على الاضطلاع بأعباء الحكومة فى بلادهم أبلغ الأثر فى تضافر رؤساء البلاد وزعمائها على تحقيق الإصلاح المنشود واسترعت هذه السياسة الرشيدة أنظار المعاصرين الأجانب فسموها سياسة اشتراك العناصر الوطنية فى الحكم والإدارة . وهى

السياسة التي نسميها نحن اليوم بسياسة سودنة الوظائف .

فكانت الرتب والنياشين تتمتع لعمد البلاد ونظار الأقسام وكبار الموظفين السودانيين من مدنيين وعسكريين أسوة بالمصريين بل ربما زاد عدد حاملها من السودانيين على عددهم من أعيان الفلاحين المصريين نذكر منهم على سبيل المثال : —

بشير بك ودعقيد	عميد الجعليين
عبد القادر باشا ود الزين	شيخ مشايخ الخرطوم
إدريس بك ود عدلان	زعيم الفوننج وأول معاون للحكمدارية
علي بك البخيت	ناظر بني عامر
احمد بك أبو جن	ناظر الحمة
محمد بك موسى	ناظر الهدندوى
عبد القادو بك إيله	ناظر الخلائقه
محمد بك يس	ناظر كردفان
احمد بك دفع الله	عين من أعيان كردفان
عوض الكريم باشا أبو سن	ناظر الشكرية
احمد باشا أبو سن	ناظر نظار الشكرية والنوايمة
كيكوم بك (مك « ملك » قبيلة الشلك)	
علي بك أبو سن	من الأعيان
حسن بك أم كدوك	ناظر البرنو

عمدة الكجايدش	على بك سالم
ناظر الضباينة	محمد بك زايد
ناظر القلابات	صالح بك شنفه
من الأعيان	أرباب بك واد دفع الله
ناظر بنى هلبة	بشارى بك واد بكر
	ابراهيم بك الورتينى
	على بك الخير
	محمد بك البلانى
	محمد باشا زايد
	صالح بك خليفة
	قناوى بك ابو عمورى
وكيل مديرية بربر	ابراهيم بك الحجاز
الشهير بالجنيير	محمد باشا امام

من الأعيان وأهل الشورة

وغيرهم ممن يعدون بالمشات وكان هؤلاء وأمتاهم من العمدة والنظار
والزعماء وكبار الضباط والموظفين القول الفصل فى شئون بلادهم بل
كان من الضباط والجنود السودانيين من اشترك اشتراكا فعليا فى الشورة
العرايية فى مصر مما يقطع الشك بأنه لم يكن هناك تفرقة بين المصرى
والسودانى ولا بين الأبيض والأسود من سكان وادى النيل ونذكر
كذلك ممن شغلوا الوظائف الادارية من أبناء السودان : —

إدريس بك ابتر	كمديرين « على التوالى » لمديرية بحر الغزال
يوسف باشا الشلالى	
سليمان بك الزبير	كمديرين « على التوالى » لمديرية
الشلالى باشا	سنار ثم على مديرية كردفان
بساطى بك	مديرا على كردفان
إلياس باشا أم برير	مديرا لبربر
حسين باشا خليفة	مديرا لفاشودة
الطيب بك عبد الله	مديرا لدارة
محمد بك خالد ذقل	كمديرين لمديرية دارفور
السعيد بك حسين	
آدم بك عامر	كمديرين على التوالى لمديرية الخرطوم
احمد باشا ابو سمنه	
محمد بك احمد	وكيلا لمديرية الخرطوم
أحمد بك جلاب	وكيلا لمديرية سنار
محمد بك الجزولى	وكيلا لمديرية بربر
احمد بك مكوار	مديرا للجمارك
عمر بك العمرانى	رئيس مجلس الاستئناف
على بك عمارة ابو سن	قاضى لمديرية الخرطوم
محمد بك التلب	
محمد بك خوجلى	

عثمان بك حبيب حامد قاضى بخطط الاستواء
 الفقيه الشيخ الامين العزيز شيخنا للاسلام
 ابو بكر بك الجرجوك من اهل الشورة

الخليفة واد ارباب
 محمد بك عبد الرحمن واد البشير
 عبد الرحمن باشا بان النقي
 الفضل بك ابراهيم
 واعضاء مجلس الاستئناف العالى

ونذكر من الرجال العظام اصحاب السمعة الحميدة والآراء السديدة
 العوض بك المهدي (ولقب بالمرضى بعد ظهور محمد أحمد المهدي)
 وكان من الرجال العظام ومع أنه كان باشكاتباً لمديرية كسلا إلا أنه كان
 صاحب الكلمة النافذة والأمر المطاع في شرق السودان وقد اختاره
 المهدي أميناً لبيت المال بعد سقوط الخرطوم فكان بمثابة الرأس المفكرة
 واليد المدبرة لشئون السودان مدة المهدي .

بساطى بك المحسى باشكاتب مديرية الخرطوم
 حسين أفندى الشريف معاون بربر
 أحمد أفندى الفسكى معاون عربان البدو (وقد اعتقل سنة
 ١٩١٤ وظل في أسر الانكليز بقصر النيل في القاهرة حتى اعتلت صحته
 وهزل جسمه نتيجة الأسر فأعادوه الانكليز إلى أم درمان سنة ١٩١٧
 حيث استشهد إلى رحمة الله وكان أحمد الفسكى مثلاً للرجولة الكاملة
 والشجاعة في الحق والكرم الحاتمي والوطنية الصادقة حلو الحديث لطيف

المعاشرة ذكى الفؤاد سريع البديهة ونذكر إلى جانب كل هؤلاء يا بى بكر
بك واد السلطان وموسى بك واد يعقوب من أمراء القضاة والمغازاة
أما الرجال العسكريون من أهل السودان الذين بلغوا أعلا الرتب
والدرجات . فكانوا عديدين امتاز منهم نخبة فى تاريخ السودان الحديث
أزجوا خدمات جليلة لأوطانهم منهم .

الماظ بك	آدم باشا	فرج الله باشا
وفرج الدين باشا	ويوسف الشلالى باشا	وصالح باشا الملك
والسعيد حسين باشا	وحسن ابراهيم باشا	ومحمد على حسنين باشا
وخشم الموس باشا	والنور بك محمد	وسرور بك بهجت
وعبد القادر باشا الفحل	وبخيت بك بتراكى	ومحمد بك السيد
وسليم بك مصرى	وعشرات سواهم	

وقصارى القول أن مصر خلقت السودان خلقا جديدا من جميع
النواحي وفضلا عن ذلك فقد ثبت ثبوتا قاطعا لاشك فيه أن نفقاتى
السودان كانت تربو على إيراداته طول عهد الحكم المصرى وأنه كان
يحتاج إلى مبالغ طائلة لتغطية عجز الميزانية كل سنة . أما إحصاء ما أنفقته
مصر إحصاء دقيقا من عهد محمد على باشا حتى قيام الثورة المصرية - من
مال ورجال فى سبيل تعمير السودان وتقديمه - فأمر عسير الملتبس وإنما
من الممكن أن يقال إجمالا أن لمصر وحدها يرجع الفضل فى إنشاء جميع
المبانيات الفخمة والمباني الصخمة التى ما يزال معظمها قائما إلى اليوم مثل

المصالح الأميرية والمستشفيات والمساجد والمدارس والشككنات وهذا
عدا مد خطوط السكك الحديدية وتسيير الوابورات البخارية النيلية
والإكثار من المشاريع العمرانية النافعة في دنقلة وكسلا وغيرها وأن
الترع الخضراء التي أنشأها سعيد باشا لتنهض دليلا على عناية الولاة
والخديويين بعمار السودان وتحقيق الرفاهية لأهله . وامتد العمران إلى
أصقاع السودان النائية عندما ضمت الحكومة مديرية بحر الغزال وجعلت
الزبير باشا مديرا عليها وكان في عهد الخديوى اسماعيل أن مدت أول
سكة حديدية عرفها السودان تكلفت مبالغ جسيمة دفعتها مصر عن طيب
خاطر على الرغم مما كانت تعانيه وقتذاك من ضائقة مالية شديدة . ووضع
في عهد الخديوى العظيم أضخم مشروع لإنشاء شبكة من الخطوط الحديدية
لربط أطراف السودان من جهة وربط شطرى الوادى الشمالى والجنوبى
بعضهما ببعض من جهة أخرى .

وفضلا عن ذلك فقد أنشأت ترسانة كبيرة لصنع البواخر والمراكب
النيلية وتصليحها فبنت الترسانة هذه الوابورات البخارية الآتى اسمائها :
تل حوين — الزبير — التركية — المنصورة — الفاشر — يوردس
الاسماعيلية — عباس — شبين — المسلمية — الحسينية — نيانزا
محمد على — السلطان — الخديوى — وذلك غير الصنادل والوابورات
الصغيرة الأخرى .

نما تقدم نرى أن حكومة « التركيه السابقة » أو بالأحرى حكومة

الوحدة المشتركة استطاعت أن تسير بالسودان في معارج الرقي والتقدم
مر عليه زمن والسودان يتنقل من طور إلى طور ويخطو إلى الامام من
حالة إلى حالة أفضل منها حتى وصل إلى درجة من السكال يحسد عليها .

وقد يكون من الشائق أن نعرف شيئا عن عاصمة السودان في
السنوات السبعين في القرن الماضي في الوقت الذي بلغ فيه السودان أعلا
مراتب التقدم والرقي في عهد الخديوى اسماعيل وبدأت تتحرك أطماع
الدول في التغلغل في قلب القارة الافريقية واستعمار هذه الأصقاع البعيدة .
قال محمود طلعت في كتابه (غرائب الزمان في فتح السودان يصف وصوله
إلى الخرطوم عند خروجه من مصر ملتحقا بخدمة الحكومة في القطر
الشقيق في غضون عام سنة ١٨٧٥ :) (فانتبهنا إلى ساحل الخرطوم في
غروب يوم الأحد ٥ ربيع الأول سنة ١٢٩٢) (١١ ابريل سنة ١٨٧٥
وفي صبحية يوم الاثنين حضر إلينا معاون الضبطية وأرشدنا إلى محل نقلنا
إليه متاعنا ثم توجهنا إلى الحكمدارية وسلمنا إفادة المالية فأمرنا أنا ومن
معي بالانتظار حتى يتم إعداد الجبال اللازمة لسفرنا عليها إلى كردفان ولا
ينسى القارىء اللبيب أن طول المسافة قد أدهشني جدا وأن الثلاثة أشهر
التي استوليت على استحقاقها ستنتقضى قبل أن أبلغ المركز الذي تعينت
لأجله وفي هذه الحالة شعرت بألم الفراق الحقيقي فاستخرطت في البكاء
وسكنت الدمع مدرارا على فراق حبيبتى وأهلى وبعد انصرافنا من الحكمدارية
أخذنا نطوف الخرطوم التي هي عاصمة بلاد السودان ومحط رحال تجارها
فاذا هي بلدة حسنة الموقع جميلة المنظر تحيىها أمواج البحرين الأزرق
والأبيض غدوا ورواحا ويوجد بها من الجهة الشمالية المشرفة على البحر

الأزرق كثير من البساتين النضرة الشائقة والقصور الباذخة الشاهقة حتى
لقد يعترى القادم على هذا المنظر البهيج حيرة لا يكاد يصدق معها حقيقة
ما ينظره أو يرى أنه قادم على أجمل بلد وأعظمها تمدنا وحضارة ولا
غرو فإن الخرطوم كانت المحل الأول لأشغال الحكومة المصرية في
أواسط إفريقية ومركز تجارة السودان ومحط رجال أعظم تجارة وعاصمة
بلاد فسيحة الأرجاء واسعة الأطراف كثيرة الخيرات جزيلة البركات
ترابها تير وحصاها دار ويسكن الخرطوم خلق كثير لا يقلون عن مائة
ألف نسمة وبها أيضا كثير من الإفرنج لكن الجنس اليوناني أكثر من
غيره لأن كل البقالين (البدايين) هناك يونانيو التبعة وما بقى منهم
يشغل بالتجارة غير أن الجنس الانكليزي وإن كان متظاهرا باشتغاله
بالتجارة كسائر الأجناس إلا أن ذلك لم يكن إلا بصفة اسمية فقط أو
هو وسيلة لبلوغ غاية كامنة في نفوس أبناء التاميز والله أعلم ولم يكن
الغرض من كتابي هذا إلا شرح هذه الغاية كما سيتضح جليا لكل من اطلع
عليه حيث يماط اللثام ويكشف النقاب ويظهر المعنى فتتضح الحقيقة
لأبناء وادي النيل ويقفوا على كنه ما جرهم إليهم الإهمال والغفلة مما قضى
على سودانهم بالفوضى وعلى إخوانهم الذين كانوا به لإدارة شؤونه
وتنظيم أحواله بالموت وعلى تجارتهم التي كانت رابحة سائدة في تلك البلاد
بالكساد وهي مصائب جنتها أيدينا علينا بما استهوينا به شياطين الدسائس
والفتن وأبالسة المكر والخداع وسترى أيها القارئ مفصلات هذه الحملات
في أبوابها بأحلى بيان وأوضح برهان ولنرجع الآن إلى ما كنا في صدره

ويوجد في الخرطوم كثير من الشوارع المنتظمة وعلى جانبيها قصور مشيدة
ومنازل جميلة تسر الخاطر وتقر الناظر وهذه الشوارع تكس وترش
صبحا وعصرا وهي لا تقل في نظافتها عن شارع محمد علي وشارع درب
الجاميز بمحروسة مصر وبها ثلاث مدارس إحداها للحكومة وهي كبيرة
كاملة المعدات حسنة الترتيب والاثنان الآخران صغيرتان إحداها
للجزويت والأخرى الأقباط أما المكاتب الصغيرة (الكتاتيب) التي يدرس
بها القرآن الشريف فهي مما لا يدخل تحت حصر وبها أيضا كثير من القهاوى
منها ما هو على شاطئ النيل الأزرق ومنها ما هو داخل المدينة وجميعها
منتظمة ومبينة تبيضا جميلا وأراضيها مكسوة بألواح الخشب وقد عُلقت
على حوائطها الصور الجميلة إلى غير ذلك من وسائل الزينة وبها جميع
ما تشتهى الأنفوس وتلذ الأعين من المأكولات والمشروبات فضلا عن
أنواع الألعاب والملاهي كالبيارد والشطرنج والنرد وغيرها مما لا يقل
عن ما في مجتمعات مصر العمومية وبالجملة فالخرطوم مدينة قد توفرت فيها
أسباب المدنية وكملت وسائل العمران وسكانها على جانب عظيم من الرقة
ودمائه الاخلاق والكرم والشجاعة فأقمنا بها خمسة وعشرين يوما اخذنا
فيها حظنا من الراحة واتمنا لوازم السفر ثم انتقلنا من الخرطوم إلى أم درمان
وهي واقعة على الشاطئ الغربي للنيل الأبيض فوجدناها عبارة عن
مكتب تلغراف وبعض اماكن خالية من السكان وقد خصصت هذه البقعة
لإقامة الواردين من داخل السودان الغربي والمتردين عليه وقد خيل لنا
ان جميع عساكر مصر قد نقلت إلى هذه البقعة لكثرة من بها من الجهادية

وعساكر الباشوزق فأقننا هناك ثلاثة أيام حتى جاءتنا الإبل وقد أيقنا عند رؤيتها اننا هالكون لا محالة لبشاعة منظرها ولانها متناهية في الطول والارتفاع شديدة السواد لم يسبق لنا من قبل رؤية ما يشاكلها وفي يوم الاثنين ٥ ربيع الثاني سنة ٩٢ (١٠ مايو سنة ١٨٧٥) علونا تلك الإبل وازمعنا السير) .

وهاك اقتباسان من أقوال سلاطين باشا نقلا عن كتابه (السيف والنار في السودان) وسلاطين باشا — كما هو معلوم كان حاكما لدارفور مدة التركية السابقة وأسير المهدية ومفتش عام لحكومة السودان من سنة ١٨٩٩ إلى سنة ١٩١٤ ويعتبر حجة ومن أعرف الناس بأحوال السودان :

« لم يكن السودان تحت حكم مصر على مثل ما أصف من شدة على »
« الأوربيين ولم تكن نحن الغربيين نتضرر من أمثال تلك المظالم فاهي »
« إلا عشر سنوات منذ وقع السودان في قبضة المهديين حتى شاهدنا »
« المظالم تترى والعسف يتوالى وإنه لمن الحق أن أصرح بأن السودان »
« ظل أكثر من سبعين سنة — منذ ادخله محمد علي تحت حكم مصر والمصريين »
« فكان من ذلك العهد الطويل مفتوحا للجميع ومستعدا لقبول كل جديد »
« تأتي به المدنية ويدعو إليه العمران — تحت حكم المصريين انتشر »
« التجار المصريون والأجانب على السواء في مدن السودان الرئيسية وفي »
« الخرطوم ذاتها كان للدول الأوربية العظمى ممثلون محترمون من الجميع »
« وقد كان الأجانب من جميع الدول الأوربية متمتعين بحق الدخول إلى »

« السودان والخروج منه وهم في كل من تبتك الحاليتين على أتم ما يتمنون »
« من أمن وهدوء وسلم وإلى جانب ذلك سهلت المواصلات بين السودان »
« وأبعد الممالك الأوربية بواسطة الرسائل التلغرافية والبريدية المنظمة »
« إن أعظم ما تتمتع به السودان أثناء الحكم المصرى الطويل هو قيام »
« كل فرد بشعائره الدينية وبنشر العلوم حسبما يوحى إليه ضميره فكنت »
« ترى مساجد المسلمين وكنائس المسيحيين في أما كن قريبة يقصدها »
« أبناءها بمطلق الحرية وفي هدوء واطمئنان كما كنت ترى مدارس »
« المسيحيين الأوربيين منتشرة لتعليم العلوم الحديثة لافرق في ذلك بين »
« الفلسفية منها والدينية والعلمية المحضة . كانت المناطق السودانية »
« مقطونة بقبائل مختلفة وكان العداء في كثير من الأحيان شديدا بين »
« رجال القبائل ولكن حزم الحكومة المصرية أدى إلى نشر السلم بين »
« السودانيين على وجه عام سواء أكانوا في ذلك راضين أم مرغمين »
وسخط سلاطين باشا سخطا عظيما على حكومة المهديّة ثم استطرد

فقال : —

« إن أول ما يتبادر إلى ذهن من يفكر في شؤون السودان بعد قيام حكم »
« المهديين هو مصير المدنية الناشئة الجديدة التي وجدت في سنى حكم »
« المصريين منذ حكم محمد على فليس من شك في أن تغيير الحال وحلول »
« الفوضى محل النظام يولدان في العقل شعورا صادقا بالقضاء على كل أثر »
« ظهر للمدنية في السودان قبل المهديين وهذا ما حدث بالفعل فقد اندثرت »

« معالم المدنية رغم طراوتها وحدثها والسبب الرئيسى فى اندثارها هو »
« انتقال الحكم إلى أولئك المستبدين الجملة بل أذهب إلى أكثر من »
« ذلك فأقول إن سبب ضياع المدنية راجع إلى ظهور نفوذ أولئك »
« الهمجيين الذين أسسوا على إنقاص الحكومة السودانية المصرية »
« السياسية نظاما جديدا كان إلى حد ما متبعا خطوات النظام الماضى »
« فى العرض ولكنه خالفه فى الجوهر فبدلا من الحق والعدالة والأخلاق »
« فى حكومة العهد المصرى تجد الظلم والباطل البربرى والتجرد من نظم »
« الأخلاق فى حكومة المهديين وأتباعهم . وأنه لمن الواجب على أن أقرر »
« للقراء غير مدفوع فى ذلك بنزعة الثأر لنفسى بما قاست من ويلات ولسكنى »
« مدفوع بوازع الضمير رغبة فى تقرير الحقيقة كلها - بأننى إن أستطيع »
« ذكر أمة ظلت فى حياة المدنية أكثر من نصف قرن ثم هبطت إلى »
« الدرك الأسفل من الهمجية غير السودان »

واستطرد سلاطين باشا فى ذكر فضائع المهديّة ثم قال :-

« إن الذين يرغبون فى دراسة حالة السودان الحاضرة ملزمون قبل »
« أى اعتبار آخر أن يدركوا بأن السودان اليوم ليس هو ذلك السودان »
« فى أيام اسماعيل باشا عندما تجلت المدنية بواسطة نفوذ الحكومة »
« المصرية فى الوقت الذى كانت فيه البقاع والامم المختلفة المجاورة »
« للنفوذ المصرى أما فى درك الهمجية وأما عابدة للاوثان حيث لم »
« يستطع الاوروبى ضمان النجاة لنفسه إذا اجتاز أحداها علاوة على أن »

« جميع الأوربيين لم يكونوا معروفين ولم تكن حتى دولة واحدة ،
« من القارة الاوربية معروفة لدى الأمم المذكورة كما أن العرب لم يظهروا ،
« في غير القليل النادر - كان السودان إذن زهرة تلك البقاع والمتميز عن
« جميع ما جاوره بماله من مدنية ونهوض وكان ذلك كله في العهد
« المصرى ولكنى أقول كما قلت قبلا . أن الهجمية تطرقت إلى جوانبه ،
« عندما جاء عهد المهديين - كان السودان على مقدار مذكور من المدنية ،
« والنهوض فأصبح منكودا متخبطا في طرقات الجهالة والظلم بعد أن ،
« ألقيت مقاليد الحكم فيه إلى قوة همجية وحشية تكره التقدم والنظام ،
« وتمجد الكذب والرياء ،

ونحن أمام ذلك كله لانكون مبالغين إذا قلنا أن السودان عرف
مدة الحكم المصرى عصر ا فريدا من عصور العظمة والأزدهار ولم تقصر
نهضة السودان على النواحي الاقتصادية والاجتماعية والسياسية فحسب -
بل شملت هذه النهضة الناحية الفكرية كذلك — فكان عهد « التركيـ
« السابقة » فتحا جديداً في تاريخ الفكر السودانى إذ استيقظ الفكر
السودانى فى ذلك العهد من سباته فتحرر من كابوس الخيالات الأولى
التي تشبه هذيان المرضى وأوهام الأطفال ونفض عن نفسه ما كان
يساوره من فزع وهلع إزاء مشاهد الطبيعة وأحداثها .

فبفضل انتشار التعليم وإنشاء المدارس ودراسة العلوم الفقهية
والرياضية وبفضل تعيين الأهليين فى وظائف الحكومة الإدارية والكتاتبية

وبفضل إرسال البعثات للخارج صارت تتسابق الناس إلى دور التعليم والانتساب إلى العلماء والفقهاء ولم يقف الحال عند هذا الحد بل أنشأت الحكومة دورا للهندسة ولتعليم الميكانيكا والكهرباء لسد حاجة الترسانة المار ذكرها ومدارس للتغراف فتتحقق للسوداني عن وعى وشعور أنه هو المسيطر على مشاهد السكون كله ، بل عرف أن له عينا ليرى ، وأذنا ليسمع ، ويدا ليعمل ، وعقلا ليتدبر ، فصار الفكر يتعاون مع اليد في إخراج التحف المعدنية الدقيقة التي تراها اليوم في سوق أم درمان وبفضل وفرة الخيوط والمنسوجات القطنية والحريفة المحلية حيكت الأثواب المزخرفة بمختلف الألوان في السودان مثل « الفرقة » « والسرة » « والبورصة » « والقرمصيص » التي يستوردها السودان في الوقت الحاضر من الهند وبنقادة ودراو والقاهرة بعد أن كانت تصنع محليا بيد أهالي السودان — وعلى الرغم من هذا السجل الحافل فأننا لم نذكر في الحقيقة حسنات الحكم المصري بأكملها بل تركنا هذا السجل الحافل على ما أخرج من رجال ميامين انحدر من أصلابهم أبناء الجيل الحاضر دون أن نعطيه ما يستحقه من طلاء خلاب بل اقتصرنا على ترديد ما كنا نسمعه من أفواه أبنائه أنفسهم وهم رجال عزاز علينا من أهل السودان مازالوا يذكرون عن أجدادهم وآبائهم ما عرفه هؤلاء عن ذلك العهد المجيد الغابر وينقلون عنهم حديثا هو الحق فيما يعتقدونه من كل هذه الأمور .

ومع ذلك فهناك سؤال لا مندوحة عن محاولة الإجابة عنه ، سؤال

جد خطير مازال يحول بخواطرنا وتشغل معرفة الحق فيه أذهاننا جميعا. إذ
انه والحال ما ذكرنا فما الأسباب إذن التي اوغرت الصدور ضد « التركيبة
السابقة » وضد حكمها ؟ وما بواعث هذا التحول الطارىء ؟ وما موجباته
وبمعنى آخر ماذا كانت مسببات تلك الثورة المشؤمة التي قضت على هذه
الحضارة والقت بالسودان في احضان الفوضى والدمار ؟ إن الاجابة
على هذا السؤال — كما يرى كثيرون من عاصروا الحوادث في الثلث
الآخيرة من القرن الماضى — وكما يعتقد اهل السودان انفسهم الذين
شهدوا حوادث الماضى وما زال ابناؤهم واحفادهم يرددون ما سمعوه
منهم حتى هذا الوقت — نقول ان الاجابة على هذا السؤال تتلخص في
جملة واحدة هي « تدخل الانكليز »

الفصل الثاني

التدخل الانكليزي

« الرواد الاجانب واكتشافاتهم . تدخل
الانكليز بحجة ابطال الرق خلق الفن
واثارة الشعور استئثار الانكليز بالادارة »

لعل اكثر ما كتبه الباحثون في تاريخ السودان خلال الجليل
الماضي لم يقصد الى اظهار شيء عن حقيقة ثورة المهدي لان المؤرخين
من ابناء ذلك الجليل كانوا قد شبوا ونشئوا بين طائفة من الكتب
والاسفار التي حجب - عن عمد - البواعث الحقيقية للثورة . وبرزت
اسبابا مزيفة ليس الغرض من ذكرها سوى تشويه سمعة المصريين وبلملة
أفكار السودانين واقناعهم بالزهد في مصر حتى يطيب لهم طلب
الانفصال - طائعين مختارين - بحجة الاستقلال تارة ، وتقرير المصير
تارة اخرى حتى يسهل بسحر هذه الاماني ادخال السودان ضمن الدائرة
المرنة ويتم ما تصبو اليه انكلترا من زمن بعيد . لاننا اذا استشهدنا بما
حدث من وقائع في جميع ادوار الحكم المصري ابتداء من وقت افتتاح
السودان الى قيام المهدي لتبين لنا أن هذا الحكم كان حكما عادلا رشيدا
يستند الى مبدأ ظاهر - هو اعتبار مصر والسودان قطرا واحدا يضمه

سياج واحد تحت سيادة واحدة . وقد يكون ما ذكرناه في الفصل السابق كافيا لبيان هذه الحقيقة .

والآن دعني احدثك عن موجبات الثورة التي هي أعجب ما حملته بطون الايام ففوق قلبك واستمع لقصة لم تستوعبها الكتب ولم تسجلها الاسفار المطولة التي بين ايدينا :

بينما يعيش السودان في يسر ورخاء والامن مستتباً والعدل باسطاً جناحيه ، والبلاد راتعة في رياض السلام والوئام ، والعناصر المختلفة والطوائف المتنوعة تتمتع بعهد ميمون سعيد ، اذ حضر في عام ١٨٦٣ صموئيل بيكر زائراً مستكشفاً . فذهب الى اعالي النيل ومعه زوجته . فتجول الاثنان في تلك الاصقاع النائية وقضيا هناك اربعة اعوام وهما ينتقلان من جهة الى أخرى مع عرب السودان « الجلابة » وعند عودة صموئيل بيكر الى بلاده الف كتاباً قرر فيه أن السودان اكثر أمناً من حديقة هيد بارك بعد الظلام : ولكنه حمل حملة قاسية على عرب السودان لسبب انغماسهم في أعمال « النخاسة » وتجارة الرقيق وحمل على الاسترقاق بعنف وشدة قائلاً أن السودان غارق في الفساد والرشوة . وان مصر تعطف كل العطف على الاسترقاق . وإنه لم يرقط موظفاً من موظفي الحكومة يتهاون في اندفاعه عن النخاسة على اعتبار أنها من الزم ما لا يستطيع الاستغناء عنه بحال من الأحوال . وان ما تبديه مصر من مظاهر عدم الرضاء عن الاسترقاق انما هو تكلف مصطنع يراد به خداع الدول الأوروبية . ثم حمل حملة قوية حادة على أهالي السودان العرب

فوصفهم « بقانصى العبيد وقاتلى الفيلة » ثم قال لولا تجارة النيل الأبيض ما قامت لمدينة الخرطوم قائمة وهذه التجارة قوامها الخطف والقتل : خطف الرقيق وقتل الفيلة . ولما تجار النيل الأبيض ففريقان يملك أحدهما المال ، فى حين أن الفريق الآخر مجموعة من الآفاكين الذين لا يملكون درهما . وكلا الفريقين يسير على طريقة واحدة ، ذلك بان رجلا لا مال له مثلا يريد تجهيز غزوة فيعمد الى اقتراض قدر من المال بفائدة ١٠٠ ٪ لتنفيذ مشروعه ويتفق مع الدائن على ايفاء الدين باعطائه سن فيل بنصف القيمة التى قد يشتري بها فى السوق وما أن يحصل على المال الذى يلزمه حتى يستأجر عدة مراكب وطائفة من الرجال العرب ثم يشتري بنادق ومقادير كبيرة من الذخائر والخرز المصنوع من الزجاج يضع مئات من الجنيهات ثم يدفع لرجاله بعد اعداد الحملة اجرا مقدما لمدة خمسة أشهر بواقع تسعة شلنات لكل منهم شهريا . وبعد أن يمنحهم فى الوقت نفسه ستة عشر شلنا فى الشهر لاية مدة تزيد على الخمسة اشهر المذكورة . ثم يستأنف صمواثيل بيكر وصفه فيقول :

« وكان قانصوا العبيد والنخاسمون الذين يتوغلون فى البلاد ويعملون فرقا فرقا فى خدمة طائفة من التجار - تجار الخرطوم - حتى أن بعض هؤلاء التجار كان يضم الى خدمته نحو خمسين الفين من العرب المرتزقة يقومون بمهام الخطف واللصوصية فى اواسط افريقيا . وكان لكل تاجر منطقة نفوذ يعمل فيها ويرسل اليها جنوده وأعوانه . وتنقسم المنطقة

الى محطات فى كل محطة نحو ثلثائة رجل . وعلى هذا النحو كانت
العصابات المسلحة تحتل بقاعا واسعة جدا . وكان رجال تلك العصابات
يعقدون المحادثات مع بعض الأهالى لمهاجمة القرى والقبائل المجاورة
لخطف النساء والاولاد والمواشى والأغنام . »

ثم يسترسل فيقول :

« وليس فى الامكان رفع قارة افريقيا الى مستوى يقرب من
المدنية ما لم يقض على النخاسة قضاء لا رحمة فيه ولا هوادة ولا استطاع
فتح بلاد لنشر الدين المسيحى لأنها موصدة . وليس ثمة ما هو اسهل من
القضاء على النخاسة لو أن الدول المسيحية الاورباوية ارادت ذلك
بصفة جدية فاذا اغمضت الدول عيونها وتهاونت استمرت اعمال
النخاسة على حالها وظلت القارة السوداء قارة اسلامية متعصبة بل
ومتعطشة لسفك الدماء . »

ثم نجم على اثر نشاط صموئيل بيكر أن ثارت ثائرة جمعية مكافحة
الرق فى انكلترا وثار الرأى العام الانكليزى واضطرت الحكومة
الانكليزية الى التدخل لدى الخديوى اسماعيل حتى يمتضى فى تلك الطريق
التي كان الخديوى قد رسمها منذ عام ١٨٦٥ بعد أمعان وتفكير للقضاء
شيئا فشيئا على النخاسة فى بلاد السودان وظهر اهتمام الانكليز وتحمسهم
للقضاء سريعا بصرامة وشدة متزايدة وبشكل عجلة على تجار الرقيق عندما
صار ولى عهد دولتهم (الملك ادوارد السابع فيما بعد) يلح الخاحا

متواصلا ظاهرا على الخديوى حتى يعين السير صموئيل بيكر حاكما مطلقا على مديرية خط الاستواء فاجاب الخديوى رغبته تطميننا لخواطر الانكليز واطمنها لصدق عزمه فى القضاء على الرق والنخاسة فعين صموئيل بيكر بفرمان لمدة اربعة سنوات مأمورا على خط الاستواء .

ولكن بيكر سرعان ما سلك فى مهمته مسلك الحكام الباطشين فأخذ يجند الجنود يقودهم — على حد قوله — من نصر إلى نصر ومن موقعة إلى أخرى فكان شأنه شأن القائد المظفر فى ميادين القتال ودعاه تهوره إلى قيادة حملة صليبية كبيرة لا ضد النخاسين فحسب بل وضد الزنوج الوادعين من أهل تلك البلاد فكان قوام قوته حوالى سبعمائة وألف من الجنود المشاة والفرسان والمدفعيين . وأما هذه الحملة فقد كلفت مصر ما يقرب من المليون جنيه خلاف المرتبات العادية وكان السير صموئيل بيكر يتقاضى عشرة آلاف جنيه مرتبا سنويا . وهكذا يتبدل حال السير صموئيل بيكر السائح العادى فيصبح ذلك الحاكم الذى لا ترد له كلمة ولا يحد شئ من سلطانه ولا يسأل عما يفعل فأخذت بعقله سلطة الفرد وغرربه نزق الاستبداد فامعن فى قتل (الجلاية) ومصادرة أرزاقهم ومطاردتهم أينما وجدوا وحيث حلوا وذاعت أخبار القتل والتعذيب والمطاردة والمصادرة فى أنحاء المناطق القريبة . فكانت تقام المناحات ويشتم العويل والبكاء على من قتلوا من عرب الجلاية واشترك الأهلون فى الحزن والأسى لأنهم جميعا (أولاد عمومة) كانت تربطهم بالجلاية وحدة الغاية والقصد وخصائص العادات واللغة والدين فضلا عن صلوات الرحم والقرابة وراح

الناس يعتقدون أن الخديوى فى (تعيينه نصرانيا لحكم المسلمين) ومن مسعاه لأبطال الرق قد أصاب الدين فى الصميم وزلزل قواعده . وكيف لا يكون الأمر كذلك وقد اعتاد أهل السودان — منذ الأزل — أن يعتبروا الرق من صميم الدين وكل محاولة لتغيير ما أبقوه وما أمر به الدين الحنيف كفر وزندقة وافتراء على الله .

اشتهد بأس صموئيل بيكر وأعلن حرباً صليبية لا رحمة فيها ولا هوادة على الجلافة كما قلنا وصار يقبض على كل عربى لسبب أو لغير سبب ويجرده مما يملك من متاع أو تجارة ثم يرسله مكبلاً فى السلاسل والاغلال إلى الخرطوم بينما هو مرتبط مع تجار بالتزامات فتضيع تجارتهم وترهقه الديون وأما من كان ينجو من الموت يبادر بمبارحة خط الاستواء — خوف العقاب فانه يقبض عليه كذلك فى بلده ويرمى به فى السجون . فزقت هذه الفعال أحشاء البلاد كل ممزق وضاعت بالناس السبل والمسالك ولما رأى هذه السنوات الأربع سرعان ما انقضت بويلاتها وشرورها . وعندما غادر بيكر خط الاستواء تنفس الأهلون الصعداء .

يصف صاحب (السودان المصرى والانكليز) صموئيل بيكر فيقول :
« وكان السير صموئيل بيكر رجلاً قاسى القلب غليظ الكبد اشتهر »
« بسفك الدماء وأزهاق الأرواح ويقال أنه قتل يوماً عشرة جنود لذنوب »
« خفيفة أكبرها أن أحدهم مر بخيمته فعثرت رجله بأحد أطناها فخرج »
« إليه وأطلق عليه الرصاص من غدراته وكان إذا سار مع جنود لاكتشاف »
« جهة كلهم بأن يحملوه على أعناقهم فإذا أبدى أحدهم ضعفا قتله فى »

« الحال فابغضه الجنود وبسبب هذه الفعال هموا بقتله مرارا عديدة فلم »
« يعصمه منهم غير ضباطهم المصريين »
وفي السنوات القليلة التالية استطاع الزبير رحمه أن يجمع فلول الجلابه
الدين طاردهم بيكر وألف منهم جيشا فتح به بحر الغزال ثم سلطنة دارفور
بالاشتراك مع اسماعيل أيوب باشا حاكم دار السودان وقدمهما إلى الخديوى
اسماعيل عربونا على ولاء السودان وإخلاصه .

بيد أن هذه الفتوح الجديدة ما لبثت أن أثارت ثائرة الانكليز
وسخطهم فالزموا الخديوى على نحو ما يعتقد أهل السودان بأن
يستدعى الزبير باشا إلى مصر . . . وما أن وصل الزبير إلى القاهرة حتى
قامت دعاية شديدة ضده في أورباروج لها مؤتمر الدول الذى انعقد
وقتذاك في (بركسل) لمكافحة الرق ثم جمعية إلغاء الاسترقاق الانكليزية
في لندن ، وترتب على ذلك أن حجز الزبير في مصر وحرم من العودة
إلى السودان وذلك في سنة ١٨٧٤ .

ثم انتهزت انكلترا هذه الفرصة فالتحت بضرورة تعيين انكليزى آخر
خلف للسير صموئيل بيكر ويعتقد أهل السودان أن الانكليز قد
اختاروا المله هذا المنصب شارل جوردون بالذات (١) فاجيبت

(١) قبل أن ينتدب جوردون للخدمة في السودان كان منتدبا بالخدمة في الصين
لحاربة زعيم صوفى اسمه (هونج توشونج) كان يدعى بأن الله أجلسه على كرسى
في السماء وكافه بأن يملأ الأرض عدلا بعد أن ملئت ظلما وجورا فانتخب الانكليز
جوردون لحاربة هذا الصوفى فسلك جوردون مسلكا وحشيا هداما فاحرق المدن بمن
فيها وحى آمنة وأخذ البرىء بذنب المذنب فقررت الحكومة الانكليزية استدعاؤه
من الصين .

رغبتهم وتعين من ثم غردون حاكما عاما على مديرية خط الاستواء
فبعث هذا التعين الجديد القلق والفرح في القلوب وزاد من ثورة غضب
السودانيين حدوث ذلك التعين في وقت كان الزبير ما يزال فيه مبعدا
عن بلاده في مصر في شبه منفى فنال ذلك من هيبة المصريين . . . أما
غردون فقد جرى بحجة إتمام القضاء على تجارة الرقيق على سنن سلفه من
مصادرة ، وقتل ، ومطاردة وتنكيل (بالجلابة) وكانت فترة من الزمن
لم يقف الدماء فيها برهة واحدة فاستحكم الضيق من جراء أساليب المظالم
وأفانين المغارم واستولى اليأس على النفوس وأصبح الأهليون في حالة
برثى لها ذل وهوان ، وخسف وحرمان . . . ثم زادت حيرة أهل البلاد
عند ما عين غردون بعد ذلك حاكما عاما على السودان سنة ١٧٧٨ بالحاح
كذلك على نحو ما يعتقد السودانيون من ولى عهد الانكليز فأصيبت البلاد
بصدمة عنيفة وعظمت الكارثة عند ما عزل غردون عددا كبيرا من
الموظفين السودانيين والمصريين واستبدل بهم جماعة من الأوروبيين . فعين
في يولية سنة ١٨٧٨ أى خلال شهر واحد فقط ١٤ موظفا أوروبيا نذكر
منهم : جيسى باشا . سلاطين باشا ، فردريك بك . لبتون بك . وارايليك
بك . ومسنجر باشا . وتشرميد باشا . ومارنو بك . وميسون بك .
وميداليه بك . وجونفرت روس بك . وأمين باشا وجوست وسواهم
وقد اشتط هؤلاء في مطاردة الجلابة ومصادرة الرقيق حتى أصبح السودان
كما يقول أهله (عربه بلا عجل او طير بلا ريش أو قفل بلا مفتاح) لأن

الأرض لا تثبت بنفسها بل لابد من استخدام الأيدي العاملة في ذلك .
والمواشى لا ترعى بلا راع والرعاة هم الرقيق الذى تصدره الحكومة
وعلى ذلك فقد كثر تفكير الناس في هذه الأوضاع الجديدة واحتدمت
غيرتهم على الدين الاسلامى وكان من السهل أن تثبت في اذهانهم فكرة
أن النصارى يتآمرون على الدين الخفيف وأن الساعة باتت قريبة وأن
الاستشهاد في سبيل الله هو عين البقاء والخلود .

الباب الثالث

مطاردة الجلابين

قتل سليمان بن الزبير باشا وقتل أعمامه غدرًا
بعد التسليم لجسبي باشا. فرار دابيح الزبير إلى الغرب.
نشاط غردون باشا. أعمال غردون التعسفية.
دور المرأة في الثورة واستنهاض الرجال للاخذ بالتأر

أما غردون فقد صار لا يجمع ولا يستكين سافر إلى دارفور
ووجد الجلابين من أمثال الجعليين والدناقلة والشايقية منتشرين في أنحاء
دارفور بعد أن فتحها إسماعيل أيوب باشا بمعاونة الزبير ومهد لهم الزبير
رحمه سبيل العيش بها فعمد غردون إلى طردهم من دارفور وأمر مشايخ
عرب الغرب والفور بالقبض عليهم والأخذ بالتأر أو نجر يدهم وإرسالهم
بالقوة إلى داره وطويشة في بلاد الفور بعد تاريخ معين وكانت حجته في
ذلك انحيازهم إلى جانب الزبير وخروجهم على طاعة الحكومة وخصوصاً
بعد احتجاز الزبير في مصر فانتهز عرب الغرب والفور هذه الفرصة
وأخذوا ينهبون (الجلابية) بل التجار الوادعين المسلمين الذين عاشوا
بينهم زمناً طويلاً والذين لم يكن لهم صلوات ما بالزبير وأتباعه فأهدرت

دماؤهم وضاعت متاجرهم وسلبت أموالهم . نعم ذاعت أوامر الحاكم العام غردون بين عرب البدو في الغرب وبين رجال الفور فحمل هؤلاء حملة شعواء لا رحمة فيها ولا هوادة على (ناس بحر) أي الجلابين فأخذوا منهم تجارتهم وكل ما يملكون من نساء وأطفال وصاروا يسوقونهم بالآلوف كالبهائم وهم عراة وبعد أن جردوهم مما يملكون ساقوهم إلى طويشة وداره وأم شنخة والأبيض واعتبر هذا عقابا عظيما لهم على مساعدتهم الزبير باشا وابنه سليمان وسائر الجلابين .

وكان كثيرون من هؤلاء التجار قد أقاموا بين سكان دارفور سنوات عديدة ولهم زوجات وأولاد وسراري وأملاك واسعة وقعت كلها الآن في قبضة العرب الفور وترتب على هذا العمل نتائج بعيدة ذلك أن معظم هؤلاء الجلابين كانوا من عزاز القبائل ولهم أقارب وأصهار وعصبيات في وادي النيل وأصدقاء وأحباب عديدين آلمتهم أوامر غردون وأصبحوا يسخطون عليه وعلى الحكومة .

وعلاوة على ذلك فإن غردون لم يلبث أن جهز تجريده تحت قيادة جسي باشا لمحاربة سليمان بين الزبير رحمه وبعد عدة مواقع كان النصر فيها حليف سليمان فكاتبه والده الزبير باشا وأمره بالتسليم ففعل ولكن جسي سرعان ما غدر به فقتله هو وأعمامه وتشتت جيش سليمان بين القبائل والعشائر واعتصمت فلولة في الجبال .

وكان يتولى قيادة الجيش الذي تركه الزبير لابنه سليمان عدة رؤساء

فلما أتاهم كتاب الزبير باشا من مصر انقسم الجيش إلى حزبين حزب مال إلى التسليم ورئيسه سليمان وحزب عارض في ذلك وكان يرأسه رابع وهو من معاتيق الزبير .

ففي صباح ١٤ يولية سنة ١٨٧٩ أتى سليمان إلى جسي مستسلماً ومعه سبعائة رجل في ثمانية من أقاربه وهم حسن ولد زقل وأبو بكر منصور وموسى الحاج وأحمد إدريس وإبراهيم واد حسن وكلهم من قبيلة الجميعاب والأرباب محمد واد دياب من قبيلة السعداب وعبد القادر واد الإمام وسليمان واد محمد والقائد برنج الأسود من معاتيق الزبير وفي ثاني يوم التسليم دعاهم جسي باشا لشرب القهوة وكان قد أوعز إلى بعض الجند فبعد دخولهم في الخيمة أحاط هؤلاء بالخيمة ثم خرج جسي منها فدخل بعضهم وأوثقوا سليمان وأقاربه وجعلوهم صفاً واحداً خارج الخيمة ثم وقفوا خلفهم ورموهم بالرصاص فانكبوا على وجوههم قتلى ولما علم قناوى بك أبو عمورى بمكانهم ذهب إلى هناك فكف عنهم وحفر لهم حفرة ودفنهم فيها بعد أن ظلوا في العراء مدة طويلة .

أما الروس الذين لم يسلموا عدا رابع فهم الرئيس أبو القاسم من قبيلة المجاذيب وموسى جلى وإدريس سلطان ومحمد فضل الله وكلهم من قبيلة الجميعاب وعبد البين الأسود من معاتيق الزبير وأخذ كل منهم رجاله وتفرقوا بين عرب البادية. ولما ذاع بين العرب خبر قتل سليمان وأعمامه وأن غردون اباح أهدار دماءهم قبض هؤلاء عليهم وساقوهم إلى الفاشر

وقد أمر ميسداليه بك مدير الفاشر بقتلهم رميا بالرصاص عملا بأمر
جسي باشا .

أما رابح فقد أفلت من الموت هو ومن انضم إليه وكانوا نحو ألف
رجل مسلحين بالبنادق قادهم رابح إلى جهة الغرب فأخذوا يجوبون
البلدان إلى أن وصل (برنو) ففتحها رابح وأسس فيها ملكا عظيما جعل عاصمته
(ديكوه) في جنوب بحيرة (تشاد) وقبل وصوله إلى بلاد برنو كان
مهدى السودان محمد أحمد قد قام بنشر دعوته وبذل محمد أحمد هو وخليفته من
بعده عبد الله النعاشي كل جهد في استمالة رابح وإرجاعه بجيشه لنصرة
الدين ولكن رابح لم يجب دعوتهم بل أرسل يقول (كيف نحارب أفندينا
ونحن من رعيته وقد فتحنا بحر الغزال ودارفور من أجله) وأسس رابح
الزبير ملكا عظيما واشتهر بالعدل والصرامة وظل ملكه قائما إلى أن
دخلت برنو في نطاق السيطرة الفرنسية فجرد الفرنسيون عليه جيشا
كبيرا فحاربهم رابح وظهر عليهم في عدة مواقع ولكنهم ما لبثوا حتى
جردوا عليه حملة قوامها سبعمائة وألف من الجنود المسلحين بالبنادق وخمسمائة
وألف من جنود باقرمي وأربعة مدافع بقيادة الكونت لا مي وكان مع
رابح خمسمائة مقاتل وستمائة فارس وثلاثة مدافع فقط . فلما التقى الجيشان
بالقرب من بحيرة تشاد وذلك في ٢١ أبريل سنة ١٩٠٠ ائتمل الفريقان
قتالا شديداً كان النصر فيه حليف الفرنسيين فقتل رابح وتشلت جيشه
وخسر الفرنسيون الكونت لا مي ولكنه لم ينقضى عام ١٩٠٠ حتى كان
الفرنسيون قد قتلوا ابن رابح ثم تدخل الإنكليز لموازرة الفرنسيين فكان

من نتيجة تدخلهم أن خضعت برنو لسلطانهم فأعادوا عائلة الشيخ محمد الأمين الكاتمي إلى الحكم واحتلوا البلاد بدعوى حماية الأسرة الحاكمة وهكذا رويداً رويداً دخلت البلاد ضمن الممتلكات البريطانية وصارت إحدى مديريات مستعمراتهم الكبيرة في تلك الجهات نيجيريا نسبة إلى نهر النيجر العظيم .

ولهذه المناسبة نقول أن البرنو أو البرنوخ « أقصى مديريات شمال نيجيريا من جهة الشمال الشرقي وجنوب بحيرة تشاد » يقطنها خليط من البرنو والكانجو والعرب والفلاته . والبرنو هم السكان الأصليون ويقال أنهم من عرب جهينة الذين نزحوا من مصر مدة الفاطميين واستوطنوها بعد أن غلبوا أهلها عليها وأسسوا مملكة واسعة جعلوا عاصمتها « قزرقو » وكان بين سلاطين البرنو وملوك مصر علاقات ودية وصلات حمية متينة أدى وجودها إلى تعليم عدد كبير من البرنو المهاجرين في الجامع الأزهر الشريف حيث خصص لهم رواق مثل السنارية وكان لرجوع أولئك المتعلمين لبلادهم أثر صالح في نشر العلم وقواعد الدين الإسلامي بين مواطنيهم فكان نور العلم دائم البزوغ في تلك البلاد النائية عن مركز الإسلام . وفي أوائل القرن التاسع عشر الميلادي استلم مقاليد الحكم رجل أزهرى من الكانجو يسمى الشيخ محمد الكاتمي مؤسس الأسرة الحاكمة الحالية وكان يلقب « بالشيخ » لا السلطان وعندما دخلت هذه البلاد في يد الانكليز في بداية القرن الحالي

انتقلت السلطة الفعلية إلى يد المقيم الانجليزي ويتكلم البرنو لغة خاصة بهم أما اللغة العربية فليغة الدين .

وبعد مقتل سليمان الزبير وتشيت جيشه كما مر ثار هارون الرشيد ابن السلطان محمد الفضل في دارفور غير أن غردون لم يابس أن قتله بعد عدة مواقع وانضمت جيوشه إلى خليفة السلطان دودبنجة في جبل مره وفضلا عن ذلك فقد ثار الصباحي في كردفان ولكنه لم يلبث أن قتل هو الآخر وتشيت جيشه ولجأت فلوله إلى جبال النوبة ينشدون السلامة في الإقامة بين أهل الجبال . وتحن إذا اردنا أن نتحدث عن المآسى العديدة التي ارتكبها غردون مدة حكمه الطويل سواء كما مور لمديرية خط الاستواء أو كحكم دار لعموم السودان ونصف بين عامي سنة ١٨٧٤ ، سنة ١٨٧٩ وما ذاقه أهالي السودان من صنوف الفزع والهلع والذل والمهانة على يده لأعوزنا الزمن لنقص كل هذه الحقائق ولضاق بهذا الحديث مجلد ضخيم ومع ذلك فلا مندوحة من أن نذكر طرفا من هذه المآسى التي لا تزال آثارها عالقة في أذهان أهل السودان ويتناقلها هؤلاء جيلا بعد جيل ، بل ويقرها « التاريخ » في مواضع كثيرة .

من ذلك على وجه الخصوص بأنه ما علم النساء والعائلات من أسرة الزبير بمقتل سليمان وأعمامه غدرا بعد التسليم حتى هيمن الرعب على نفوسهن واستبدت بهن الهواجس والأوهام وغاصت قلوبهن في أرجلهن وتساءلن فيما بين أنفسهن عن المصير وهن يعلمن أنهن لو بقين حيث كن

لغتك بهن الزنوج . لاسيما عسا كر جسي باشا . وكانت الافكار والصور
والتخيلات وذكريات الماضي - ماضى العزة والسيادة والحاضر والمستقبل
حاضر المذلة والهوان - ومستقبل الشكوك والخاوف ، تكتظ في أذهانهم
ويدفع بعضها بعضا فلا يزيدهن التفكير في ذلك كله إلا حيرة على حيرتهن
فيققن مشدوهات مغمورات بالحنينة ينتظرن من السماء إلهاما يرشدهن إلى سبيل
الخلاص والسلامة وقد أدركت حقيقة الموقف وما يكتنفه من خطورة
جسيمة ، العازة بنت إدريس ، وكانت العازة هذه ، فكائية ، الجيش أى
« غناية » ، وهى امرأة فصيحة اللسان تقول الشعر باللغة المحكية فخطبت
في النسوة المشدوهات : « يا بنات هوى » لقد غربت حياة رجالنا في
غياهب العدم ، ولكن أرواحهم تناديكم : الفرعة : الفرعة : هيا :
رجالنا غربوا وراحوا بعيدا وبلا رجعة : رجالنا تركونا بلا وصية لأن
العدو الخائن قتلهم غدرا ونحن هنا بلا انتظار : هيا افزعن من هذا
المكان : اربطن أصلابكن وكرين (أى احزنن) هدمكن واشددن
رحالكن فليس في الوقت متسع : لا تدعن الكلاب تمتص « العنكب »
(أى قصب السكر) ولا تدعن زهور « الشاف » (الفتنة) تسقط في
الوحل وتطأها البهائم فاذا أدرككن العبيد أفترشن شعوركن واستحقت
عليكن اللعنة الأبدية :

نحن نبادر بالفرار من الوقوع في أيدي الأعداء ، ونجتهد في
الإفلات ونلجأ إلى كل حيلة . قد تسكفل لنا الحرب ! هيا : هيا : ادرعوا
السيوف والحرا ب كالرجال لا تدعوا الدمع يفيض وينهمر الآن :

الهرب نصف السلامة والعيب على من توانى ! وماهى إلا دقائق معلومات
حتى هجرت النسوة امكنتهن وصرن يهن على وجوهن يقطعن الفيافي
ويخترقن الغابات الكشيفة ، ويسلكن المفاوز والوديان الخيفة سائرات
على غير هدى حتى حللن بمديرية كردفان بعد أن اخترقن دار النوبة
ودار حمر ودار المسيرية والحوازمة وقد صرن فى أرض مغبرة قحلاء
حتى صرن فى حالة ملثها التعاسة وتجلت عليهن مظاهر السكابة وآيات
المتربة وكلما صادفن « فريقيا » (أى منزله) من فرقان العرب نزلن به
وهن يصرخن صراخ الفزع والنجدة « صراخ الطنيب » (المستجير)
ورائهن العازة بنت إدريس المار ذكرها فكانت تخاطب رئيس القبيلة
أو الفريق قائلة :

« يا عمار الوادى وسادة البوادر ،
« يا مجبرى الطنيب من بطش الأعادى ،
« يا سادة الأمة وقادة الأئمة ،
« يا حماة الدار وستارين العار »
« يا موئل الخائفين وحماة المستضعفين »
« بحرمة داركم وموقد ناركم أن تأوونا »
« نحن داخلون عليكم من السيف والحيف ،
« نحن نستحلفكم بالعرض وحرمة الدين وغيرته ،
« نحن طالبات منكم الحماية من عدو ديننا وعدوكم ،

نحن بنات عرب عزاز وبنات قبائل لكم فينا
« الأمهات والحالات والعمات والأخوات وأنتم عرب »
« تحمسون الزمار وتأوون الطريد وتطعمون »
« الشريد من الرجال . قد جئناكم طائبات »
« بعد أن قتلتم رجالنا وصرن أيامي - نحمل »
« اليتامى . فارفعوا عنا صدمات الزمان وعوادي »
« الأيام . لقد ترك رجالنا الدنيا للظلام ولنا وأنتم »
« ياسادة الدنيا وحكامها واقبالها . لا تسخروا من »
« هؤلاء الضعاف وأهل النيل والأرياف . أنتم »
« كالشبع الذي يذهب بالجوع . وكالسماء الذي »
« يغطي العرى . وكالسماء التي تطلع منها الشمس فتدفيء »
« البردان . وكالنار التي تنضج الطعام . وكالماء »
« الذي يطفى العطش . وكالدواء الذي يشفي المرضى »
« ويحيي الموتى قد جئناكم طائبات لناوونا وتخففوا »
« عنا ما نحن فيه من تعس وشقاء »

فيرد الشيخ قائلا :

« أبشرن ستيكن في أعز جوار وامنع »
« ذمار . لقد عطفت أحشائي عليكم بعد »
« ما علمت أمركن . فاسترحن على مهاد »
« الراحة والأمان واملأن قلوبكن بالطمأن »

فتجيبيه :

« هذا هو المأمول فيك يا عشاى »

« بارك الله فيك وفك تعاسير دنياك »

« ويسر لك سبيل مقصودك »

مضى محدثنا يقرب ناظريه في وجوهنا المتلهفة إلى سماع حديثه وقد لاحظت على اساربره علائم الشجن والحزن، ولعله كان يطربه ما يحسه من شوقنا وتلهفنا إلى ارسترساله في هذا الحديث الممتع . غير أنه لم يطل الصمت فقد تنهد ورفع رأسه وقال : ما أظنكم أيها الحبان رأيتم مارأيت على أن مخيلتي لم تخلق هذه الصور ولم تنسجها من خيال كاذب ، ولكنها وليده مشاهداتي الشخصية فقد كان والدى ضمن رجال سليمان الزبير الذين قتلهم (جسى) باشا غدرا بامر غردون وكنت . أنا الشايب الآن في سن الوعى والمراهة وكنت اصحب أمى في هذه السرية التى ، اقص عليكم الآن حوادثها . أيام ان كنا ، وكان لنا جاه وكنا حكام وأيام ان كان لنا شأن وعز وصوله - هى أيام مضت وانقضت بخيرها وشرها . ولكنها مهما تغافلنا عن الماضى فلم ننس سياسته المدوان التى إذاقتنا مر العذاب ، ونكلت بالآباء وتنمرت لهم فكثير من رجالنا الذين كلهم المجد تحولت سيرتهم تحولا مؤلما . فى حين التمس غيرهم لانفسهم مأوى فى خارج السودان يلجأون إليه امثال رابح الزبير وأعوانه وبقوا به يغمرهم الاسى وقد جر عليهم الدهر ثوب النسيان ... ثم تنهد وقال :

و اذا انطلق لسان المحزون بالشكوى فقد زال نصف دائه ، واذا لقيت
شكواه قلبا واعيا انتقلت إليه ... وها انا اقص عليكم نصيب هؤلاء
النسوة من الجهاد — في شان الله — وما اقمته من مناجات . وما تعبه
ذا كرتى من اناشيد الاسى والشجن . غير انى اسارع فاقول لكم أنه كان
بين هذه (السرية) نساء جميلات غاية الجمال . كن ينتصبن كاشفات
الرؤس فكانت تتدلى شعورهن المحلوله الفاحمه فوق صدورهن الفاتنه كانهن
تحف نادره بين نساء البوادي . أو كانهن تماثيل حية من آيات الفن
الفرعونى صاغتها آلهة المصريين على ما تشتهى وتشاء ذات قامات فارعة
واجسام بضه ناعمة فتيه . وعيون (جعليه) عميقة ساحرة . فى نظراتها
فتنة واغراء . وكانت هذه العيون الساهمة الدامعة ترسل نظرات ساحرة
تفيض اشفاقا ورحمة فقدمانت الابتسامات على تلك الشفاة الغضة الخضراء
التي تستهوى النظر وتأخذ بمجامع القلوب والى كانت يوما ما تبسم فى مرح
الشباب ورونق الحياة ...

كانت الصبية تفتصب فينصت الناس كأن على رؤسهم الطير وتعدد
مناقب وليها بصوت مؤثر حنون . تبدو فى نبرات رنات الشجو والشجن
المثيرة . فتنادى الليل وتناجيه . وتشكو له وتشكيه . وتخطبه فى مثل هذه
الرقعة المشجية ، النغمه الباكية . وكان هؤلاء النسوة يقمن المناجات أينما
حللن فترى النادبات منهن ينشدن المراثى الرقيقه فتئن لها أوتار القلوب
بالحان كشيبة مؤلمة فهذه امرأة تناجى ابنها بالبكاء وزرف الدموع
وتتحدث إليه بكلام مؤثر فتبكي العيون وتدمى القلوب وتعقبها امرأة

أخرى تناجي أخاها كأنه ينطق وهو جامد اللسان بعيد عن المسكن
فتقول :

« قم يا محمد شدوا لك العاني »

« قم يا محمد اعدل الخاطي »

« قم وقل يا فاطمة هاتي »

وتلك امرأة تودع ابنها بكلام مؤلم فتتحدث إلى الأحجار وتخطب
الأشجار والنجوم الساهرة وظلام الليل وكواكب السماء ثم تعطف
وتقول :

« يا أعمار الوادي وديعتي عنديكم احسروها بالطافكم : إن روح ابني »
« ترفرف بأجنحتها تطالبكم بحق الدم . أما جسمه فراقده رقدته الأبد »
« مضطجع في لحده . إن نسمة الصبح العاطرة واغرودة الطير الساحرة »
« وصيحة الديك الصادحة وصدى النحاس الداوية . لن يحرك لهم ساكنا »
« ولن يبعثهم من مرقدتهم الهادي . لقد قتلوا غدرا ولم تعد أسماؤهم تنالاً »
« في صفحة الخلود ولم تعد ألوية الفخر تخفق فوق ربوعهم حتى تبقى ذكراهم »
« نبراسا يهتدي به المدجلون في غياهب الزمن السحيق . لن ترى الزوجة »
« مهلة للقاء زوجها حين أوبته . ولن يمضي الأطفال هاتفين يزفون بشري »
« قدوم أبيهم أو متسلقين ركبته . أو متخاطفين قبلته ... لقد قتلوا غدرا »
« بعد التسليم . إن الجسد لفى شوق إلى صدر حنون يركن إليه والعين »
« الذابلة لفى لهفة إلى بعض الدموع المنسكبة والآن ليصمت كل همزة »

« لمزة ليستسمع إلى صوتهم وهم يهتفون من أعماق القبور قائلين :
« نحن قتلنا غدرا والغدر بأهل الغدر وفاء عند الله . نحن نستحلفكم »
« بحق السنة ألا تدعوا الدم يصرخ إلى السماء صراخا ألما في الليالي »
المظلمة لئلا تنزل بكم الضربات الهائلة التي تأمر بها شريعة الانتقام » (١)
وكان النساء يلبسن لباس الحرب والنزال ويتدرعن عدة الحرب
ويقبضن السيوف كالرجال المحاربين وتتسابق البنات الحسان كاشفات
رؤوسهن وتبرزن وتمجزن وتعرضن كأنهن فرسان في ساحة الوغى يصرخن
بأعلى أصواتهن :

« نحن بعد أن أباد العدو رجالنا البواسل »
« لا نرضى بالاستكانة ولا نقبل المهانة والضعفة »
« ولا نرضى أن يطلق علينا » فضلة السيف « لقد »
« تركنا الخباء والحجرة ، وفضلنا الجهاد والهجرة »
« نحن ناس الحرب ، نحن أهل الطعن والضرب »
« نحن لا نموت على الفراش كما يموت الجبناء الاذلاء »
« نحن استعصنا أنفسنا بالرجال - نحمل الذمار »

(١) يعتقد أهل البادية أن دم المقتول يصرخ دائما في الليالي الدامسة
ويطاب النار . فإذا هدر الدم اضطرب العرب كلهم واستعرت نفوسهم غضبا حيث
يزعمون أن الانسان إذا قتل ولم يؤخذ بثأره يخرج من رأسه طير فلا يزال
يصيح ويصرخ إلى أنه يؤخذ بثأره وفقا للبداء الجاري مجرى السنة بالعين بالعين .
والسن بالسن .

« ونأخذ بالشار . ونغسل العار — يا عمار الوادى ،
 « يا أهل البوادي أوقدوا النيران واطرقوا ،
 « الحراب وحموا السيوف . . . لا تتوانوا . . .
 « لا تجعلوا الساق يستقر على القدم فيوم الشكر ،
 « قريب . . . قريب : قرب الذقن للشارب وقريب ،
 « قرب الكتف للغارب . . »

وكانت العازة تقف بين العربان وتكشف عن رأسها تطلب النجدة
 تارة ومعددة مآثر الزبير وابنه سليمان تارة أخرى فتقول :

- « ولد حديباى كريم ما كرم بلا بَصَه (١)
- « كريم يرحم العدمان اللى إيده يابسه (٢)
- « كريم يعطى اللى مخلوفته كابسه (٣)
- « كريم يدخل العوجه الفرسانه لابسه (٤)
- « ما نمام ماماسكك الحرص فى باله (٥)
- « ما كذاب ما يسمع حداثث قالوا (٦)
- « يتبسم بالضحك وقت العديم يصغاله (٧)

(١) كان الربيع يوصف لحديباى الفارس المنتصر والمقصود أن سليمان كان
 كريما من حق لا كرم تظاهر (٢) يحزل العطاء للعدم (٣) كريم علي من
 ركبته العدم (٤) يحود بنفسه ولا يحجم علي الدخول فى معصية الحرب (٥) لا
 يعرف النعيمة ولا أستمع الى أحاديثها (٦) لا يكذب ولا يسمع الى الكذاب
 (٧) يخفف من ويلات المكروب بالضحك

« ايده مساعداه للعطاء اللي بيستر حاله (١) »

« كم ياسليمان شدولك على متبور (٢) »

« ويدك يا ابو نفل تفعل قدر ما تدور (٣) »

« كم كمّل عيالا تضبط السكبسور »

« كم كمّل عيال الميرى والمأمور »

« كم كمّل عيالا تأمر تقول حذدور (٤) »

« كم كمّل عيالا فوق الخرابة تدور »

« كم كمّل عيالا غدى الحده وصقور (٥) »

« كم كمّل عيالا حشت مصر واستمبول (٦) »

ثم تعود فتثنى على سليمان الزبير قائلة : —

« أوريك نفايلهم اللي كلهم باعرفهم (٧) »

« الخوف والبخل بالسكة ما يصادفهم »

« كل مرجوب يشلوه فوق اكتافهم (٨) »

« والغريب فرد يوم كلهم بالفهم »

« ان خطر او مستقيم هو ابن ملوك »

« واد الزبير الصافي ما مشرّوك »

« غير سايان كل الأمل يوك يوك (٩) »

(١) ويده تساعده على جزل العطاء (٢) جياذ الخيل (٣) الاصيل واليه

المطلقة تجيد النيشان (٤) التفات (٥) أى أنه أشجع الطيور باللحوم البشرية (٦)

أياد شبابا أيقظ مصر واستمبول (٧) أى خصالهم التي امتازوا بها (٨) كل من

اخفى عليه الدهر (٩) كلمة تركية معناها (مفئش) او معدوم

املاً اليد صحيح وقت الحديث شك شك (١)
وكان لصراخ أولئك النسوة اثر فعال في اثاره العواطف وتحريك
كواامن الحقد في قلوب العرب ضد الحكومه وبما يحكى وتنقله الالسنه
أن الامام محمد احمد سمع ذات مرة امرأه تبكى وتنوح على زوجها وعائل
أولادها فتاثر وبكى بكاء حاراً أبكى من كان حاضراً معه وقد طلبت من
محدثى الشيخ العوض ان يعيد على مناجاة هذه المرأة حتى يتسنى لنا إثبات
شئ منه لتصوير ذلك (الجو التاريخي) الذى كان يحيط بالناس فى تلك
الايام الخوالى فقال : —

« حالى حال العدو المسكين .

« حالى حال إلبهم إلتكينه للسكين .

« حالى حال الملسوع سرت فيه سموم الشعابين .

« حالى حال أم البنيه لمن جناها يدين (٢) .

وبما يؤيد ذلك فان مرأى هذه النساء مازالت حيه تدور فى الافواه
وترن فى الاسماع حتى اليوم فى غناء المسكروب وعزاء المحزون .

ولما رأى عرب كردفان مادمهم من مصائب وماتوا الى عليهم من
نكبات ورأوا مصير سليمان الزبير وهارون الرشيدى والصباحى وما أصاب
نساءهم ورجالهم من تعاسه تملكهم السأم من الحياة وشعروا بالنقص فى

(١) كلمة تركية معناها (وافر)

(٢) ومعنى ذلك أن حال هذه المرأة التعسة كحالة معدم فقد كل رجاء
وأصبح كحيوان شد وثاقه وعلى رقبتة سكين أو كملسوع سرى فى جسمه السم
أو كحالة أم ظهر على ابتها الجل وهى لا تزال عذراء

كياتهم وبالفراغ في قلوبهم وعلى ذلك فانه ما أعلن الامام محمد احمد الشوره حتى رموا بأنفسهم في أحضانها فكانت عرب كردفان أول من لبى النداء دفاعا عن كياتهم وكيان رجوليتهم مفضلين الموت في سبيل الله على الموت أذلاء مهانين فكانوا اشبه بنهر طغى وفاض مأؤه من فوق الجسور فاغرق الحقول وخرب المزارع ولم يعق اندفاعه عائق أو كالمصروع أصابته جنة فهبوا للجهاد بغية الخلاص مما هم فيه من بؤس وشقاء وتعاسه بالغة وصار شعارهم ذلك القول الذى رددت الوديان اصداؤه فى طول البلاد وعرضها « فى ساء الله » : « فى ساء الله » : « فى ساء الله »

* * *

وأمعانا فى إثارة شعور الأهلىن انشأت الادارة مدة حكم غردون مصلحة أطلقوا عليها اسم (مصلحة الرقيق) وعين لها غردون من يدعى بكسر باشا مديرا فقام بكسر المذكور لتنظيم هذه المصلحة واستخدم معاونين ومأمورين وجند الهجانة والمشاة ثم أنشأ للمصلحة فروعاً فى أنحاء السودان فانتهمز الأرقاء من نساء ورجال هذه الفرصة وصاروا يتركون أسيادهم ويفدون أفواجا على هذه المصلحة فتعطيهم قذاكر حريه بختم الحكومة . واعمانا فى النجدي والشكاية عمدت الادارة إلى تشجيع الرقيق واغرائه على ترك أسيادهم وصارت تقدم لهم الغذاء والكساء وتصرف لهم (الجراية) من أموال الحكومة فوقف دولا ب العمل (فى البيت والغيط) على حد قول السودانين ووقفت النساء العربيات مشدوهات

لا نهن لم يمارسن (طحين الاذرة على المرحاكة حتى يصير عجينة) ولم يمارسن (عواصة هذه العجينة على الدوكة حتى تصير كسره) أى خبزا يؤكل ناهيك بالخدمة المنزلية الضرورية وورود الماء وخدمة (الضيوفان) وغسل الملابس . وكان من عادة المرأة العربية انها لا تتزوج بدون أمه أى جارية تقوم على خدمتها فى حياتها الزوجية عملا بالقول المأثور (العربية تحمل وتلد والأمة تطحن وترد) حتى أن عدد الجوارى والعبيد الذى يقدمه الزوج كان يثبت فى عقد الزواج ضمن الصداق وفضلا عن ذلك فقد أنشأت الحكومة - امعانا فى الهاب الخواطر مكاتب لاعطاء (نذاكر ترخيصات) دعاره للجوارى الحسان حتى يمارسن المهمة تحت حماية الحكومة ثم خصصت لهن أماكن أطلق عليها اسم (كرخانة الحكومة) .

وخصصت الحكومة أيضا (اندايات) لصنع الخمر وشربها وكان غرض حكومة غردون على ما يبدو ان تستقى ماتريده من معلومات سرية بخصوص الرقيق وخلافه من هذه الأماكن الدنسة كما أثبتته سلاطين باشا فى كتابه (السيف والنار) فتفشت الفحشاء وكثر المنكر وعمت البلوى وعظم الخطب وانتشر الفساد .

واكتظت مدن السودان أمثال الخرطوم والأبيض وسنار وسواكن وكسلا بآلاف مؤلفة من السفلة والرعاى وآلاف مؤلفة من (الشطار) الذين لا يملكون من أسباب العيش غير أدوات الجريمة وأصبح المشتغلون

في رعى الماشية وفلاحة الارض من رواد اللهو والخلاعة ولما كانوا قد نفصوا عنهم ثوب الحشمة ولا يعرفون للشرف والطهر والعفاف معنى فقد انطلقوا مع (الفرخات) أى « الجوارى الصغار » وهوا مع اللاهين يحدوهم إلى ذلك سعار إلى اللذة لم تبخل عليهم (الحرية الطائشة) اطفاء بما كانت تقدمه لهم من صنوف اللذة التى تشتهيها نفوسهم فانغمسوا فيها انغماس الذباب فى العسل وكان يقوم على الخدمة فى الانديات نفر من الجوارى اللواتى يحسن مع بيع الخمر بيع الصبا به والغزل الرخيص وصحب ذلك كله الشذوذ الجنسى والميل المنحرف وشاع حب الغلمان وقد يكون هذا الشذوذ موجودا فى كل مكان وزمان ولكن الجهر به وعدم التستر منه حتى أن صاحبه لا يرى فيه عاراً فتلك حال ما كان يطبقها أحد بل لقد طغى الشذوذ لدرجة أن صارت الجارية لا تعد جميلة إلا بالقدر الذى يشبه جمالها فيه جمال الغلام .

وقد أشار سلاطين باشا فى كتابه (السيف والنار) إلى تفشى هذه الرذيلة أيام المهديّة وقد تغاضى عنها الخليفة وسمى أصحابها (بالملاوطة) ولما كانت الجارية كما هو معلوم تقوم بمالا تقوم به (الحرة) فلا بد إذن من صفات وخلال تعلو بها كفتها وتحجب الناس فى اقتنائها وهى صفات وخلال ترجع بعضها - فى نظر السفهاء كسفة الجارية على الصفات وخلال التى تتحلّى بها الحرة . فامعن الجوارى فى حياة اللهو والفجور . ومع الخمر والجوارى جاء الغناء الذى أحكمته الصنعة البارعة . ونحن نقبّس العبارة الآتية من مقال نشر بجريدة الأهرام سنة ١٨٩٦ جاء فيه : - أن المرحوم

الشيخ على عبد الله الذى كان فى ذلك الحين شيخ السجادة القادرية فى الخرطوم كتب عريضة إلى الحكمدار غردون يقول فيها أن له زاوية للعبادة تسكنتها منازل جملة للعاهرات الواقى لا يقتصرن على السلوك القبيح بل يقلقن أيضا راحة العباد بما يحدثنه من الجلبه بالرقص والنقر على الدفوف والضرب على آلات الطرب : فأجاب غردون على عريضته هذه جوابا لا يليق بالأديب أن يندس قلبه بنقله سماح الله كاتبه .

وقد حدثني رجل عاصر هذه الحوادث فقال كان الجوارى يخرجن إلى الشوارع يغنين الأغاني الخليعة فى عبارات عارية مفضوحة منها على سبيل السكيد للنساء الأحرار ربات الخدور .

« كندروك . كندروك ما بناخذ العزبان

« نعزل فى التلوب رجاله النسوان

« نطلع فوق قلوبهن ونوقد النيران

« ونسقين مرار حنضل الجيزان»

وكانت الجارية تتعرض للشبان فى الطريق وهى تغنى بأقبح الأغاني

وبدون خجل أو تستر تسد الدرب على الشاب تحاوره وتداوره وهى

تقول :

« سمونى حركة أم حريكه

« أمى وأبوى دفعونى ليك

« تدفنى ياواد أمى تدفنى؟!!!»

جاء في كتاب السودان المصرى والانكليز الحادثة الآتية نوردها
هنا لدلالاتها المثيرة : —

«مما كان يحدثه الانكليز في السودان على يد سياحهم أن أحد هؤلاء
السياح المدعو (المستر شوبر) الذى سكن السودان وجال في أنحائه نحو
خمس عشرة سنة ليضرم فيها نيران الشقاق كان ذات سنة مسافراً في
شواطئ البحر الأبيض في جنوبي مركز السكوة فنزل عند قبيلة رحالة اسمها
(قبيلة سليم) وأقام بمنزل شيخها ضيفاً كريماً فكان رجالها يصحبونه إلى
الغابات ليستطلع ما يريد ويرسم ما يريد وكان من عادات القبائل الرحل
أنهم كلما نزلوا في الصحراء يقيمون مسجداً وذلك بان يجمعوا قليلاً من
التراب على شكل دائرة مربعة فأراد ذاك الضيف الكريم أن
ينقل رسم هذا المسجد في دفتر سياحته فرافقه إلى المسجد كل من في
الحجى ليشاهدوا رسم الفوتوغرافيا وكان ذلك وقت آذان العصر فعندما
سمع المستر شوبر المؤذن أخذ يحذف ويتفوه بكلمات يمنعنا إجلال مقام
الدين من كتابتها فقام عليه الأهالى وبعضهم أراد قتله وقد نالته جراح
ولكن شيخ القبيلة تدارك الأمر بكل صعوبة وحمى ضيفه بعد أن قتل
أحد خدامه ورفقائه الانكليز وتمكن من تهريبه ليلاً :

ولدى وصوله إلى مركز السكوة أرسل إلى الحكمدار غردون برسالة
يخبره فيها بما جرى له فقامت قيامة الانكليز على قبيلة سليم ومخرت
البواخر عباب النيل حاملة أربعة آلاف جندي لقطع دابر تلك القبيلة
الضعيفة التى أهانت الشرف البريطانى على حد قوطهم فحاصر هذا الجيش قبيله

سليم بالمدافع والخيول تحت قيادة المستر شوهر وذلك قبيل الفجر وأمطر عليها تارا حامية فأهلكها على بسكرة أبيها ولم ينج منها إلا رجلان وامرأة اختبأوا تحت القتلى الذين بلغ عددهم ١٠ آلاف ذهبت ارواحهم ضحية لإهانة النفوذ الإنكليزي المشؤوم .

وعلى أثر هذه الحادثة أصبح البسطاء والعامّة من السودانيين يعتقدون بما يقوله لهم الإنكليز من أن الحكومة المصرية والآتراك لا يدينون بالدين الاسلامي لأن أهلاك قبيلة سليم بإرسال أربعة آلاف جندي عليها كان بأمر خديوى مصر ولكن العقلاء كانوا يعرفون سر الدسيسة وهو أن الحكمدار غردون كتب إلى الخديوى يقول أن قبيلة سليم نيزت طاعة الحكومة وثار عليها فأذن سموه بكبح جماح الثائرين وتأديبهم .

وكان المهدي تجاه هذه المظالم يشدد النكير على الحكومة والناس يستثمرون بأرائه ويتنورون بنار ذكائه وأخذوا يرتقبون فرصة للخروج من ربقة تلك السيطرة الانكليزية . أما السودان فبعد أن كان يؤدى إلى مصر جزية سنوية بعد نفقاته نحو ٤٠ ألف قنطار سنا ونصف مليون من الجنيهات أصبح يتقاضى من خزانتهما مليون جنيه في السنة لينفقها في مصالحه مما لم يعهد له مثيل منذ ضم السودان إلى أملاك مصر . فليتأمل العاقل إلى أى حال أوصله الجور والظلم وفى آية هاوية أوقعه أولئك المصلحون .

جاء فى كتاب (السودان المصرى والانكليز) ويتصل إتصالا وثيقا بموضوعنا قول صاحبه ما يأتى : —

و علم القراما ما أحدثه الإنجليز من الفتنة والعداوات في داخلية السودان
أى فى مديريات دارفور وكردفان وفاشوده وبحر الغزال ولما كان غرضهم
الوحيد هو سلب السودان عن مصر بتعميم الاضطراب فى جميع أنحاء
حتى تعجز الحكومة عن قمعها وكبح جماحها أخذوا يسعون فى بث الشقاق
بين قبائل السودان الشرقى أى فى مديرية كسلا ومأمورية القضايف
ومحافظة مصوع وهرر وزيلع وسواكن فاستعملوا عليها جماعة من
مأجورهم الإيطاليين والنمساويين مثل (مانرويك مبيسيداليا) وغيرهم
من أعوانهم ومن تحققوا ميلهم إليهم من أولئك الذين لا وطن لهم غير
الراتب فراح هؤلاء يضرمون نيران الشقاق بين هاتيك القبائل ولحسن
الحظ أنهم لم يفلحوا وظلت أمم السودان الشرقى مخلدة إلى السكينة التامة
وطاعة الحكومة ومصادقتها وكانت عروق التجارة بين هذه الأمم وبين
الحبشان دائمة نامية لأنهم كانوا مستوطنين بلادا واقعة فى جيرة الحبشة
من ناحية الغرب وفوق ذلك فإنهم كانوا متوادين متحابين وكان الحبشى
يوحنا محافظا كل المحافظة على مصافة الحكومة المصرية وبينه وبين سمو
الخدوى اسماعيل باشا رسائل ود وحسن تواصل وتهاد وما ذلك إلا
لأن المصريين لم يكونوا طامحين إلى بلاده فلم يكن مضطرا إلى إقامة
حامية عسكرية فى تخومه أو حشد جنود لرد غاراتهم وصد مطامعهم كما
تفعل إيطاليا اليوم مع خليفته وذلك مع طول مدة مجاورتهم له التى لا تنقص
عن ٧٠ سنة ولذلك ترى الأحباش اليوم يأسفون على فراق مصر جارتهم
الأمينة الآلفة ويرددون زفرات الحنين على بعدها .

ولما خابت مساعي الإنكليز ومأجوريهم في إحداث ثورة في السودان الشرقي مع ما بذلوه من أموال الخزانة المصرية ورأوا أن سكان هذا الشرق لا يزدادون إلا سكوناً وعمدوا إلى الخيل التي حركت سواكن والجهات الأخرى وعطلت تجارتها فأخذوا يستأجرون لصوصاً بمرتبات شهرية ويأمرونهم بقطع السبل التي كان يسلكها التجار الوطنيون والتجار الحبشان فأخذ التجار حذرهم وأصبحوا لا يسافرون إلا إذا احتشدوا ألوفا لتسهيل عليهم مقاومة أولئك اللصوص السياميين وصيانة تجارتهم فأفلحوا أفلاحا مبينا .

ولما رأى الإنكليز وأنصارهم أن هذا المسعى الجديد لم يغن فتيلاً أخذوا يدبرون غيره . فقر رأيهم على زيادة المكوس والدخوليات فضربوا على زق العسل أربعين قرشاً مع أنه لا يساوي إلا خمسة قروش فقط وجعلوا على قنطار البن ٨٠ قرشاً مع أن ثمنه ٦٠ قرشاً لا غير . فقامت قائمة التجار ورفعوا عريضة إلى الحكمدار غردون يشكون فيها من لائحة المكوس والدخوليات الجديدة فعنفهم وقال لهم إنكم نخاسون تجلبون الأرقاء من بلاد الحبشة وإني أريد قطع تجارتكم هذه ثم أصدر أمره بأن كل من شك من هذه اللائحة يحاكم طبقاً لللائحة ببيع الأرقاء وذلك كفعله مع زملائهم التجار في دارفور مما أشرنا إليه في رسالة سابقة أما تجار الحبشان فكانوا يأخذون منهم تلك الضريبة الفاحشة وفوق ذلك يقيمون لهم العراقيل تذهب بأموالهم كما تقام العراقيل في وجه

التجار السودانين الذين يتواردون إلى مصر في هذه الأيام فرفع الحبشان شكواهم إلى النجاشي يوحنا فكتب كتابا إلى الحكمدار غردون يسأله فيه الرفق بتجار بلاده ويذكره بالمعاهدة الموضوعة بينه وبين الحكومة المصرية القاضية ألا يؤخذ منهم أكثر من اثنين في المائة فاغتنم الحكمدار غوردون فرصة ورود ذلك الكتاب اياق عملا يكون قاضيا على مصافاة الحبشة لمصر بل يكون سببا لإعلان الحرب بينهما مما تكون نتيجته قطع التجارة وحمل الحكومة على القيام بمعدات الدفاع وحشد الجنود إلى التخوم حتى يكون لشرق السودان أسوة بغربه فكتب إليه جوابا حشوه السباب والتهديد والوعيد ومما جاء فيه قوله للنجاشي :

« إني ساجع جنودي وأفعل بك كما فعل الإنكليز بسلفك النجاشي كاسه نخذ لنفسك الحذر وسوف تعلم إنني لست خائفا كالأتراك »

ولحسن الحظ أن النجاشي عندما ورد إليه هذا الجواب قال لمن حوله « أن هذا الرجل إنكليزي وأنه يريد أن يوقع بيني وبين صديقي الخديوي اسماعيل باشا فأولي لي وأحجي لي أن لا أجيبه » فاستصوب وزراؤه هذا الرأي وأشاروا عليه بان يكتب إلى الخديوي يخبره بهذه الحادثة التي أثار عامله الإنكليزي غبارها ولم نعلم ما جرى بعد ذلك ولكتنا رأينا الحكمدار غردون جمع جنوده المصرية في القلابات المجاورة لمدينة غندر وبالغ في إظهار العداء للنجاشي وفي آخر الأمر سافر من القلابات إلى عاصمة بلاد الحبشة فقبض عليه وعلى من معه

وسيقوا إلى العاصمة لمحاكمتهم حيث دخلوا على الملك النجاشي بلا
استئذان وأخذ غوردون يعتذر إليه بقوله إني كنت مأمورا بأن أكتب
إليك الكتابة وأن الذي أمرني هو صديقك الخديوى اسماعيل باشا
فلم يصدقه النجاشي وأقر وزرائه على محاكمته فسيق إلى المحاكمة فحكم عليه
وعلى من معه بالاعدام ولكن لما عرض الحكم على النجاشي يوحنا
ليصدقه أبى وقال أن الرجل لم يخرج عن كونه عاملا لصديقي خديوى
مصر فقتله بعد إهانة في جانب صداقته فاطبق الرأي حينئذ على إطلاقه
ليعود إلى التخوم المصرية ولكن من غير الطريق التى أتى منها فيسافر
من طريق اسمره فمضوع مخفورا ويكون سفره في الليل لا في النهار لئلا
يكون جاسوساً انجليزياً .

(أما الإنكليز فالتهبوا غيظاً لأنهم لم يفوزوا من لدن نجاشي
الحبشة بما فازوا به من لدن ملك زنجبار) وبهذه المناسبة يصح لنا أن
نذكر مسألة زنجبار والبلدان المجاورة لها كما ورد في نفس الكتاب ضمن
المقالات التى نشرها صاحبه في جريدة الأهرام قال « تقدم لنا القول
في إحدى المقالات السابقة أن المنظور والمؤكد أن تكون أوغندا وما
يجاورها من البلاد طعمة لمن هو صاحب السلطة على أملاك خط
الاستواء التابعة لمصر أى أوغندا وما في جيرانها من البلدان كما ينتظر
دخولها بحوزة مصر .

وقد أوردنا في المقالات السابقة ذكر الفتنة والاضطرابات التى

أضرهم الانكليز نارها في داخلية السودان المصرى قبل ثورة المهدي
بزمان وأخذوا يجبنون كل رأى خطير لهم فيها ويستخدمون نفوذ
الحكومة المصرية في قضاء مآربهم وأطاعهم الإنكليزية .
ومن ذلك أن الجنود المصريين كانوا يرسلون حملة أثر حملة لبث
النفوذ المصرى بين تلك القبائل فكانت لا تلقاهم إلا بالخضوع ولا
تستقبلهم إلا بالحفاوة وفي سنة ١٨٧٢ شخصت احدى هذه الحملات عن
طريق اوغندا الى زنجبار فلم تلق في طريقها اقل عشرة حتى بلغت تخوم
المملكة الزنجبارية فاستقبلت هناك بكل بشاشة وإيناس واطهر لها السكان
ميلهم الى مخالصة الحكومة المصرية وحظى قائد الحملة المصرى بمقابلة
ملك زنجبار فلقى من الأكرام والحفاوة بين يديه اضعاف ما لقيه عند
قواد التخوم فأظهر له الملك رغبته في مصادقة الحكومة المصرية وأنه
يريد أن تظل مملكته بالعلم المصرى على شريطة أن يمنح امتيازاً خاصاً
يضمن له السلطة عليها وابدى له اسفا شديداً على كون قومه المصريين
لم يعرفوا بلاده منذ زمن طويل . ثم اخبره أنه تابع لأمير المؤمنين وخادم
الحرمين وأنه يخطب باسمه في كل بلاده وبعد ذلك عقد مع القائد المصرى
اتفاقاً وقع عليه الاثنان ليعرضه القائد على حكومته المصرية حتى إذا
اصدقته اصدر الأمر باتباعه وهذا نصه بحرفه .

المادة الأولى :

أن تكون مملكة زنجبار تحت الحماية الإسلامية العثمانية المصرية
ويكون الملك محصوراً بالتوارث بين ذرية الملك الحالى أو بين أسرته .

وبالجملة ان امتياز الملك في مملكته يكون شبيها بامتياز سمو الخديوى
اسماعيل باشا واسرته في مصر .

المادة الثانية :

ترسل الحكومة المصرية موظفين من قبلها ليقوموا بتأليف هيئة
الحكومة في زنجبار وتنظيم المالية والجند طبقا للنظامات المتبعة في
الحكومة المصرية ولا يجوز تعيين مصرى لاية وظيفه كانت إذا وجد
وطى يقدر على القيام بها .

المادة الثالثة :

ترسل الحكومة المصرية مندوبين من اصدقائها ورجالها الجنوبيين
ليؤيدوا كل النظامات التى تسن فى مملكة زنجبار بشأن إنشاء نظارات
مالية وداخلية وحرية ونظارة المعارف ونظارة الاشغال ويكون
التلاميذ المتخرجون من مدارس المملكة مقدمين على غيرهم فى الترشيح
للو وظائف ولا يجوز لمصر أن تطلب عساكر من زنجبار إلا إذا حدثت
حرب دينية بين امير المؤمنين وعدو آخر فيطلب هو حيثئذ جنودا من
زنجبار . ثم أن علائق زنجبار وصلات شؤونها كلها من الدول الاجنبية
يكون عقدها وحلها على يد نظارة الخارجية المصرية .

المادة الرابعة :

لا يجوز للحكومة المصرية أن توظف فى مملكة زنجبار احدا من

الاجانب الغير المسلمين إلا إذا كانوا من رعاياها فلا بأس حينئذ من منحهم وظائف .

المادة الخامسة :

أن كل الاموال التي تجي من مملكة زنجبار تنفق في شؤونها وما بقي بعد ذلك تؤخذ الى الخزانة المصرية وتكون مصر ملزمة بصرف كل ازمة مالية أو حرية تصيب مملكة زنجبار .

المادة السادسة :

ينفذ مفعول هذه بعد اطلاع خديوى مصر عليها واصدار أمره بقبولها .

وبعد عقد هذه المعاهدة قفل القائد راجعا إلى خط الاستواء بعد أن ناب عنه احد الضباط المصريين مسرورا بما نالت حكومته مبتهجا يكون هذه المعاهدة الراجعة ابرمت على يده ولكن نسي أن حكومته في غفلة عن هذا الفوز المبين وانها احلت في مكانها اصدقاءها الانجليز ولذا وجد للقائد هؤلاء الأصدقاء آسفين نادمين على كونهم فرطوا في تسليم قيادة هذه الحامية إلى قائد مصرى ولم يولوا انجليزيا أو إيطاليا عليها وايقنوا انهم ليسوا بمفلحين إن فازت مصر بهذه الأمانة فقبضوا بأظافر النمر وبرائن الشاهين على تلك المعاهدة التي كادت ارواحهم تزهق لدى مطالعتها ومن غريب ما حدثته ان الحكمدار غردون أخذ غداره مسدسة وأراد أن يقتل بها نفسه لولا أن امسكه ومنعه الخواجا نور اتو الايطالى ولحق

به المسيو فردريك وغيرهم من الانجليز ومأجورهم وكان يردد هذه العبارة [ماذا يقول عنى قومي الانجليز إذا تم هذا الوفاق الذى جعلنى من انذل ابناء جلدتى] وبعد أن امسكوه واخذوا يسكنون روعه ثاب إليه رشده الذى استله عامل الحسد والطمع. فليتأمل العقلاء وليقيسوا على هذه الحادثة غيرها مظاهر الشدة والانانية الدميمة التى استأثر بها الانجليز واشتهروا بها فى العالمين بعد أن عدل غردون على مفارقة الدنيا أخذ هو وانصاره يدبرون طريقة يفسدون بها المعاهدة الزنجبارية فقر رأيهم على أن يبذلوا الرتب والوظائف بغير حساب لمن حولهم من الموظفين ليكنموا خبرها الرنان .

أما القائد الذى عقدها فحكموا أن لا بد من إيقاعه فى جنائية يختم بها عمره لأنه كفر. بنعم الانجليز وهم الذين ولوه قيادة تلك الحملة فادعوا عليه أنه اشترى رقيقا من الزوج وفى الحال قبض عليه وأودع فى السجن وامسك الحكمدار غردون المعاهدة وكتب كتابا إلى سمو الخديوى اسماعيل باشا يقول فيه .

« ان ملك زنجبار قام فى وجه النفوذ المصرى واسر جماعة من التجار المصريين فأرسلنا حامية عسكرية لاستطلاع اخبارهم فلقبها لسوء الحظ بأشد ما يكون من العداوة مقاومه طويلة حصرها فى إحدى النقاط فاصبحت على شفير الهلاك وإننى أرى أن افضل وسيلة لانقاذها هى أن تهدى إليه هدية ثمينة وتودد إليه عسى يكون وراء توددنا ما فيه خلاص حاميتنا من يديده . »

لله دره على هذه الحيلة وقد انطلت على المغفور له الخديوى اسماعيل
باشا فامر بإرسال الهدية بلغت قيمتها ٢٠ ألف جنيه مصرى واصحبها
بكتاب منه إلى ملك زنجبار فاخذ الحاكم دار غردون هذا الكتاب والحقه
بالمعاهدة . . .

وأرسلت الهدية مع المستر لو كس السائح الانجليزى الذى كان حاملا
كتبا تدل انها مرسله من الدولة الانجليزىه إلى ملك زنجبار وتضمن تحذيرا
له من وضع مملكته تحت الحماية المصرية ونصائح عديدة من علماء السوء
بالقدح فى الامامه إلى غير ذلك من الهجاء الذى لانستطيع ايراده
بالحرف الواحد وماورد فيه أن مصرأمة بربريه فان كانت مملكة زنجبار
ترغب الانحياز إليها كان انحيازها وبالا وشؤما والدليل على ذلك أن مصر
تستخدم الأوروبيين فى بلادها ليشوا التمدن فيها وعلى أثر هذا التدليس والتقليق
كسب الانجليز مودة ملك زنجبار باموال مصر وعدل هذا الملك عن
نيته فى مخالفتها ونبت الثقة بها وانسحبت الجنود المصرية من نخوم زنجبار
بدعوى انهم اطلقوا من الأسر وهكذا اختتم الطمع الانجليزى هذه
الرواية المخزنة التى لاظن أن أحدا سمع بها وليته لم يسمع . .

ونعلق نحن على هذه الرواية فنقول : أن اسماعيل سيرهناك باشا قد
نقل هذه المعاهدة فى كتابه (حقائق الأخبار عن دول البحار) ولكنه
لم يستطع الوصول إلى معرفة اسم القائد المصرى الذى خرج بالحملة إلى زنجبار
وعقد هذه المعاهدة مع « ملكها » ومع أنه قد تعذر علينا نحن كذلك

والوقوف على حقيقة ما جاء بها من وقائع مفصلة فمن الثابت أن الخديوى
اسماعيل قد أرسل فى عام ١٨٧٦ حملة الى مصب نهر الجوبة لانشاء مركز
يطل على المحيط الهندى مهمة حاميته مراقبة نشاط تجارة الرقيق فى
الساحل الأفريقى الشرقى ولكن هذه الحملة لم تلبث أن انسحبت نتيجة
لاحتجاج سيد برقش سلطان زنجبار بتحريض من الانكليز وادعائه
أن الأرض التى نزلت بها الحملة كانت من أملاكه . ومن الثابت المعروف أن
غردون باشا نفسه كان أول من أشار على الخديوى بإرسال هذه الحملة . على
أن يخرج من ناحية من اللادو عاصمة مديرية خط الاستواء لمقابلة الحملة
ومساعدتها ولكنه لم يفعل . ومن المحتمل أن يكون عقد المعاهدة السابقة
قد جرت قبل خروج هذه الحملة من مصر وقيامها من السويس وأن تكون
هذه الحملة من نتائج عقد المعاهدة . وفضلا عن ذلك فهناك من الكتاب
من يعزو تقصير غردون فى الذهاب إلى الساحل الأفريقى الشرقى إلى
رغبته الصريحة فى تعطيل النفوذ المصرى فى هذه الجهات وخدمة المصالح
الانكليزية . وقد يكون عدم خروج غردون من اللادو يسبب هذه
المعاهدة . بيد أن كل هذه الأقوال ليست سوى احتمالات . وإنصاف
للحقيقة والتاريخ نرى لزاما علينا أن نذكر أن موقف غردون
من مسألة نهر الجوبا وزنجبار على وجه الخصوص كان سليما فى جملة
وتفاصيله . أما رواية صاحب « السودان المصرى والانجليزى » فإن أقل
ما تدل عليه هو أن أهل السودان ومن عاصر منهم هذه الحوادث كانوا
يرون فى كل فعال الانكليز خطة مبيتة ومؤامرة حيكوا أطرافها من زمن
طويل كان الغرض منها تفويض دعائم الحكم المصرى فى السودان واقتطاع
أطراف الممتلكات المصرية فى افريقيا تمهيدا لابتلاع السودان نفسه فى
النهاية .

الفصل الرابع

إبطال الرق ومحاربة الإسترقاق

تمهيد . تاريخ العبودية والرق . الرق في مختلف الأديان . ارق في الولايات المتحدة . الفوارق اللاونية في أمريكا . منشأ الدعوة لإبطال الرق . حرب الشمال للجنوب من أجل إبطال الرق . المشاكل الجنسية في أمريكا وإفريقيا . الاندماج الجنسي بين شعوب الوادي

قبل أن المسيح عليه السلام قابل الشيطان يوما في السوق العامة وواجهه على سلوكه السيء في بث الفتن وخلق المشاكل والمتاعب بين الناس

فاجابه الشيطان . الأمر على عكس ما فهم المسيح ثم تناول قطعة من الحلوى وأصمقها بالخائط فوقعت عليها ذبابة . فرأت سحلية هذه الذبابة فوثبت عليها ، فشاهدت قطعة تلك السحلية فقتلتها . وكان أحد الجنود البريطانيين يسير في ذلك السوق مع كلبه ، فوثب الكلب على القطة فقتلها فقتل صاحب القطة الكلب فقتل الجندي البريطاني صاحب القطة .: ولم يمض وقت طويل حتى وقع الاضطراب واستدعى اطلاق المدافع فالتفت الشيطان إلى السيد المسيح وقال :

هل سمع سيدي صوت المدافع ورأى فتكها وأنا لم أصنع شيئا
لإحضرارها ؟

أما الإنكاين فقد كانت حلواؤهم التذرع بدعوة إبطال الرق وكان
سوقهم السودان . . . وأين مكر الشيطان ، من خبث البريطاني ؟؟؟

في مقدمة النقط التي يتلاقى عندها العلم والدين ما تقول به نظرية
التطور أن الناس كلهم من أصل واحد . إذ الأرجح أن يكون هناك
نوع بشري واحد بدأ ظهوره في آسيا أو في غيرها بعد أن قطعت الأحياء
شوطا بعيدا في سلم التطور . . ثم حدث التنوع والاختلاف بين البشر
باختلاف اتجاه الجماعات وتباين البقاع التي استوطنتوها أزمانا طويلة .
إذ أن للبيئة الطبيعية - كما لا يخفى . وما لتلك البيئة من مؤثرات المناخ
والغذاء وأسلوب العيش وغيرها أثرا بالغاً في تشكيل الأجسام وتنوع
الألوان وفضلا عن ذلك فللبيئة أثرها في العادات والخلق . . وبذلك
تنوعت السلالات البشرية وظهر بينها أقوام من البيض والسود والصفير
والحمر . ويرجع ذلك التنوع إلى ما قبل تاريخ الإنسان المعروف
بزمان بعيد .

أما السود فهم الذين لوحث شمس المنطقة الحارة بشرتهم وميزاتهم
الاعتبارات الجسدية الوراثية عن غيرهم ، وحالت مؤثرات بيئتهم
وعزلتها بينهم وبين التحضر والاندماج في الأمم وكان لذلك الرزق
الميسور الذي تفيض به الغابات والمراعى حولهم . وذلك الجو المرهق
الشديد الحرارة ما حملهم على التراضي في الكد أو التفنن في التماس سبل
العيش أو الاهتمام بالمستقبل فهم يعيشون في الحاضر قانعين بالكفاف

يحون حياة ساذجة فطرية مستسلمين للبقادير يعللون الظواهر الطبيعية
بالسحر وفعل الأرواح ، ويستوطن الزنوج بعض أنحاء المنطقة الحارة
في إفريقيا وجنوب آسيا ويعيش منهم نحو ١٥ مليوناً في أمريكا وهؤلاء
يرجع أصلهم إلى إفريقيا ، أما زنوج إفريقيا فسلالات مختلفة يجمع بينها
سواد اللون . ومن أشهر السلالات السوداء سلالة السود أصحاب القامة
الطويلة والرأس المستطيلة والشفة الغليظة والأنف الأفطس والشعر
المفلقل ، أولئك الذين يقطنون المنطقة الممتدة من المحيط الأطلنطي إلى
أعلى النيل الأبيض . ثم الأقزام الذين يعيشون في حوض الكونغو
والبانتوا وهم خليط من السود والحاميين القدماء وينتشرون في الهضبة
الجنوبية وكذلك سكان صحراء كلهاري وهم البشمان والبوثنون
الآخذون في الفناء والانقراض . ثم الفولة والزنده والجلّاء والهوسه .
وزنوج إفريقيا بل جميع زنوج العالم تحكمهم وتسودهم الشعوب البيضاء
بما في ذلك جمهورية ليبيريا في إفريقية الغربية وهي الجمهورية التي أسستها
الولايات المتحدة الأمريكية ليهاجر إليها زوجهها إذا شاءوا الاستقلال
والبعد عن المشاكل . . . وهذه الجمهورية تخضع في الواقع للحماية
الأمريكية وتحكم حكماً غير مباشر . وليس لها من الاستقلال إلا الاسم .

وقد شرح كتاب « ماتو » أحد كتب الهند المقدسة مذهب البراهمة
ونشأة المدنية الآرية فجاء فيه أن أصل العبيد سبعة . أسير الحرب ،
ومعهم رضخ لمن يكفل معاشه . وابن العبد المولود في بيت المولى ، والفرد
مهدى هدية أو مبيعاً بيعاً ، والمتنقل بالإرث من الوالد إلى الولد ،

والمستعبد عقوبة له على جناية ارتكبها ، والمستعبد لعجزه عن تأدية دين أو ضريبة أو غرامة . وسواء ألم هذا الإحصاء بكل الأصول أو أغفل بعضها فالعبودية قديمة كالحرب والحروب من خواص الخليقة ولقد تحكمت طبقة الأحرار في مصائر طبقة العبيد السود ودخل هؤلاء الآخرون في حوزة الأحرار منذ بدأ العمران .

ويقول هربرت سبنسر أن أول العبيد هم أسرى الحرب وقد جرت العادة بأن يأكلهم الغالب في ولائم النصر . وأنه عندما كثر عددهم أجل قتل بعضهم للتلذذ بلحومهم المشوية في وليمة أثبه ليصير النصر الواحد نصرين . واستخدم العبيد خلال هذه الفترة ، فأثار استخدامهم انتباه السادة المنتصرين عليهم إلا أن حياة الأسير أنفع للغالِب من موته .

وعندما نزلت الشرائع أباحَت الشريعة اليهودية أن يمتلك الناس بعضهم بعضا وأن يستعبدوا أخاهم اليهودي ستة أعوام أما غير اليهودي فيظل في العبودية حتى الموت .

ولا يفهم ما ورد في إنجيل يوحنا قولهم للسيد المسيح عليه السلام « نحن لم نستعبد لأحد قط » وهم خاضعون يومذاك للاحتلال الروماني وقد بيعوا في أسواق أورشليم ، وجأهروا في كتاباتهم بأنهم استعبدوا سبع مرات في أرض الميعاد . ومن يحمل بيع عيسو بكوريته ليعقوب با كلة عدس أى يبيع كل حقوقه وقبل العبودية لذراريه ؟ ولسكن العرب الذين ينتسبون إلى عيسو كادوا يحون بسيادتهم وعظمتهم هفوة السلف

الجانح . وقد باع بنو يعقوب أخاهم يوسف للتجار وباعه هؤلاء في مصر فخدمه في السنين الجوائح وجر إليها ذويه فانتهى بهم الأمر إلى الرق ولم يكن ليطلق سراحهم لولا الضربات العشر الذائعة الصيت كما ترويه الكتب المقدسة .

ألم يكن للنصرانية والإسلام من أثر في القلوب لتحملها على الرحمة والعطف ؟ لا شك في أن الدين أيا كان له تأثير ظاهر وأنت إذا أحصيت العوامل الكبرى ذات الأثر البالغ في تكييف النفوس لوجدت الدين في مقدمة هذه العوامل . وقد انتقى السيد المسيح تلاميذه من بين الخاطئين ومضى ينادى بالمساواة والغفران وحب الأعداء لأن الجميع أبناء الله يدعونه وكان الإسلام من الناحية العملية أكثر نفاذاً إلى حقائق الأمور . وجد العبودية عند شعوب سبقته ولكنه لطفها إيما تلطيف وعلى مقربة من تعاليمه العالية ونصائحه الحكيمة . أنه أوصى باليتيم والضعيف وابن السبيل والرفيعة .

وكان الطائع الأول النبي العربي ذاته فقد بسكى (صلعم) عبده الميت كما يبكي الكريم صديقاً عزيزاً . فكانت حال العبد في دين الإسلام أفضل حالات أمثاله . أما الاعتناق والدعوة إليه فمن أعجب صفحات التاريخ الحمدي .

والواقع أن العبودية عند المسلمين أخف منها عند غيرهم . ترى بين العبد والمولى تبادل أمانة ورعاية وصلة رحم وللعبد أن يتزوج أرملة

سيده وينشئ عائلة وحرية مكفولة والعبيد عندهم يقومون بشتى الأعمال
فالنساء للخدمة المنزلية والرجال يفلحون ويزرعون ويرعون الماشية
ويشتغلون بالأعمال الحشنة والصعبة المتأثقون يقومون على خدمة الضيوف
وإكرامهم ويعدون المركبات ويرافقون ابن مولاهم فى الصيد وفى النزهة
ويشاطرونه دروسة وألعابهم كأنهم الممالك الصغار فى بعض البيوت
الشرقية .

وهكذا عومل العبيد برفق فأحبوا مواليتهم . إن غاب أحدهم يوما
تألموا لفراقه وانتظروه باكين مسرورين عاد أقبلوا يلثمون يده ووجهه
فرحين مستبشرين ، وإذا اكتسبوا ثقتهم . بحسن سلوكهم ورجاحة عقلهم
أطلق سيدهم أيديهم فى ماله وشئونه وحفظ لهم فى نفسه مكانة ظاهرة
فزوجهم من بناته وصاروا أحب الناس وأقربهم إليه . وآبة ذلك . أن
ممالك الأيوبيين فى مصر أنشأوا ملكا وأسسوا دولة عاشت طويلا .

وقد ظلت مصر والشام فى حوزة الممالك الذين ابتاعهم السلطان
الصالح نجم الدين أيوب مدة قرن وثلث قرن تقريبا من الزمان .

وصار الناس فى مصر والشام والسودان اما عبيدا واما موالى
وصعب على الانسان أن يجعل حدا فاصلا بين العبيد والموالى لأنه حدث
بفضل التزاوج والتجنيد وانتشار التعليم أن وجد بين العبيد من صاروا
موالى كما وجد بينهم من هم عبيد وموالى فى آن واحد .

وعندما وصل محمد علي باشا الى اريكة الولاية كان البكوات الممالك هم أصحاب السلطة الفعلية في مصر . وكان الرق جزء من النظام الاجتماعي والاقتصادي السائد في البلاد . وقد وصف المعاصرون الأجانب ما يلقاه الرقيق (أو العبيد) من رعاية وعناية فائقتين من جانب أسيادهم . وعند ما دخل المصريون السودان كان الرق منغلا كذلك في كيان تلك البلاد الاجتماعي والاقتصادي والسياسي . وكانت مهمة محمد علي في واقع الأمر تقييد الرق في تلك الديار بصورة تساعد مساعدة فعالة على كبح جماح النخاسين وتخفيف ويلات الإنسانية بإبطال الاسترقاق وتبني سبل العيش النافع للرقيق بالخدمة في الجيش والحقل والمصنع . ولم تعرف مصر مدة محمد علي وخلفائه أية فوارق جنسية تفضل بين العبيد السود وبين سائر أبناء الامة بسبب الامتزاج والاندماج وبغير تفرقة عنصرية حتى أنه لو استطال بنا الزمن لقضى على الفوارق الجنسية جميعها وخرج عنصر قوى جديد كالعنصر البرازيلي الذي هو نتيجة الاختلاط بين البرتغاليين البيض والهنود الحمراء والأفريقيين السود أو كما حدث في شبلي حيث تبلغ نسبة العنصر الخليط نحو ستين في المائة وفي بيرو حيث تبلغ نحو خمسة وثلاثين في المائة وللقارئ الكريم أن يقابل بين هذه الحالات جميعا وبين حالة الزوج في الولايات المتحدة الأمريكية الذين يبلغون نحو عشرين مليوناً فإن لعلاقة الزوج بالبيض هناك قصة طويلة مؤلفة جزءاً هاماً من تاريخ الولايات المتحدة الأمريكية وخلاصة هذه القصة . أنه لما عزم الزعماء الأمريكيون أن يشوروا على إنجلترا في

الثالث الأخير من القرن الثامن عشر بحثوا عن أقدم الحقوق الإنسانية واتخذوها شعارا لهم فصرحوا في اعلان استقلالهم أن الحرية حق من حقوق البشر الأساسية وأن قوة الحكومة مستمدة من قوة قبول المحكومين لسلطانها فسوغوا بذلك ثورتهم على الانكليز بيد أنه مادان النصر لهم حتى نسوا هذه المبادئ النبيلة وكمبلوا فريقا من البشر وهم الزوج بالأغلال وكان الجشع والأناية رائد الأحزاب السياسية الكبيرة وكانت هذه تؤيد الرق وتحمي ملكيته وقد ظلت الحال على ذلك نحو نيف وسبعين سنة حتى اذا تأسس حزب الجمهوريين قاوم هذا الحزب الجديد دخول الرقيق الأسود في غير تلك الولايات التي كان موجودا بها فعلا في ذلك الحين وكان هذا الحزب يلتقي معارضة شديدة من جانب الحزب الديمقراطي القديم في الولايات الجنوبية خصوصا ذلك بأن أعضاء الحزب الديمقراطي في الجنوب كانوا يرمون الى تعميم الرق في كل البلاد بينما أصر أعضاؤه في الولايات الشمالية على أن يترك لكل ولاية الحق في تقرير شرائعها فيما يتعلق بمسائل الرقيق وكان بفضل نشاط الجمهوريين أن بدأ الرق الأسود يزول رويدا رويدا من بعض ولايات الشمال وبدأ يتسع نطاق المناقشات في أمر إلغاء الرق عموما ولكن بعض الولايات الجنوبية ما لبثت حتى هددت بالانفصال عن « الاتحاد » إذا ألغى الرق فعمد فريق من الزعماء والقادة إلى التوفيق بين الولايات وازالة أسباب الخلاف بينها بأن أقاموا خطا فاصلا بين الحرية والرق وقسموا الولايات الى حرة وأخرى تبيح الرق .

زعم المصلحون الأمريكيون أن ذلك الرق الأسود سوف يزول
بمضى الزمن غير أن الأمريكان ما لبثوا حتى اعتادوا وجوده واعتبروه
شرا لا بد منه ثم زادت أهمية الرقيق من الوجهة الاقتصادية حينما اتسع
نطاق زراعة القطن في الولايات الجنوبية وزاد تصديره إلى أوروبا
فكثرت الأرباح وعلى ذلك فقد تشبث أهل الولايات الجنوبية بنظام
الرق وقد زادهم عناداً على عنادهم ظهور الجمعيات الإصلاحية التي أسسها
في الشمال (وليم جارسون) وقد بدأت هذه تنادى بعنق العبيد وكانت
ترى في الرق جرماً يرتكب ولا يليق بإنسان شريف أن يرضى به .

وما أن انتخب ابراهام لنكولن رئيساً للولايات المتحدة عام ١٨٦١
وكان من كبار مؤيدي إلغاء الرق وتحرير العبيد حتى اشتد استياء
أهل الجنوب وجأهروا بالعصيان والانفصال عن الشمال وكوّنوا
دولة « كنفدرالية » في الجنوب انتخبوا جفرسن رئيساً لها فأعلن لنكولن
في خطبة الرئاسة بأن الوحدة الأمريكية لا يمكن أن تنقسم عراها وأن
كل عمل غايته القضاء عليها باطل ثم صرح بعزم حكومته على الدفاع عن
حقوقها وسلطانها وإن اقتضى ذلك استخدام القوة . ثم حاول (لنكولن)
أن يحافظ على الوحدة من غير أن يلجأ إلى قتال ولكنه أخفق في مسعاه
بسبب إصرار زعماء الجنوب على تمسكهم بموقفهم فبدأت الحرب بين
أهل الشمال والجنوب واتسع نطاقها وتطأير شررها فكانت الحرب
الاهلية الأمريكية المعروفة التي دامت نحو أربع سنوات والتي انتهت
بفوز أهل الشمال عام ١٨٦٥ بعد أن قتل في معاركها نحو مليون نسمة

وأصيب أكثر من نصف مليون بإصابات مختلفة وكان من نتائج تلك الحرب الأهلية أن قضى على الرق نهائيا باعتراف أهل الجنوب أنفسهم بالغائه وأدخل على الدستور تعديل يقضى بتحريم الرق في جميع الولايات المتحدة الأمريكية غير أن إلغاء الرق أمر والوصول إلى حل لمعضلة الزواج بأمريكا أمر آخر .

حقيقة يتساوى الزوج في الولايات المتحدة الأمريكية مع البيض في الحقوق قانونا ولكنهم يعاملون فعلا كالعجموات ذات النفع القليل حيث يعتمد البيض إلى التخلص من الزوج بشقى الوسائل وبخاصة إذا أنسوا منهم شرا وتكاد تكون وسيلة الأمريكان في ذلك إزهاق أرواح السود دون أية محاكمة . إذا ألقى سوء الحظ بأحد هؤلاء المنما كيد في أيديهم على أثر جريمة ارتكبت أو شر لحق برجل أو امرأة من البيض ووقع الاتهام على كاهن زنجي من الزوج . ومع أن الدستور الأمريكي قد ساوى بين جميع أفراد الشعب فيما له من حقوق وما عليه من واجبات فإن بعض الولايات الجنوبية مثل (نيو أورليانس) قد حرمت قوانينها مجاورة الزوج للبيض في مساكنهم فلا يجوز لرجل أسود أن يتخذ مسكنا في حي يسكنه للبيض ولا يحق لرجل أبيض أن يقطن في حي مأهول بالزوج وتعود أسباب ذلك للنفور الوراثي المستحكم بين السود والبيض بأمريكا إلى أسباب عدة :

أولا : أن الاسود إذا تزوج من فتاة بيضاء جاء نجلهما أبيضاً أو

أسوداً أو وسطاً بينهما فإذا تزوج أحد الأمريكان البيض من ابنة الزوج البيضاء فإنهما قد ينسلان سلالة سوداء طبقاً لقوانين الوراثة .

ثانياً : أن العامل الزنجي يزاول هناك الأعمال الحقةرة والمهن الوضيعة التي يعافها البيض . والزنجي يرضى بالأجر القليل الذي لا يرضى به العمال البيض .

ثالثاً : أن الأسود لا يعترف بمبدأ تحديد النسل فهو كالحَيوان يكثر من الأولاد ولما كانت تتكفل بذلك الحكومة حيث لا يستطيع الانفاق على تعليمهم وفي هذا إرهاب لميزانيتها ويسبب إلى فرض الضرائب الكثيرة وليس هناك أى أمل في إزالة هذا النفور القديم والعداء المستحكم بين البيض والسود في أمريكا على الرغم مما وصل إليه الأمريكيون من حضارة ورقى .

وفي إفريقيا الجنوبية لا تقل مشكلة البيض والسود في خطورتها عن مثيلتها في العالم الجديد ، وترتد أصولها إلى الوقت الذي بدأ فيه الهولنديون يستعمرون جنوبى أفريقيا منذ ثلاثة قرون تقريباً وكان يقطن هذا الجزء من القارة ، قبائل ، البانتو ، البشمان ، والهوتنتون فاضطرت تلك القبائل إلى الارتحال نحو الشمال تدريجياً بسبب ضغط البيض عليها . ثم أخذت القبائل تتكاثر على مر السنين كما صارت تزداد صلاتها رويدا رويدا بالمدن التي أنشأها البيض ، فلم يمض زمن طويل حتى ظهرت مشاكل عدة كان سببها أن اقلية من البيض

صار تستعمر اقلية تقطنه اكثرية من السود وتتحكم في مصائر هذه الاكثرية ثم زادت خطورة هذه المشاكل عندما اشتد النزاع بين البوير البيض وهم أول من استعمر تلك الجهات وبين الإنكليز حينما ضموا إلى امبراطوريتهم افريقية الجنوبية . وكان للاعتبارات الاقتصادية شأن ظاهر في اثاره هذا النزاع لأن البوير الذين يحترفون الزراعة ويربون المواشي كانوا قد درجوا على اقتناء الرقيق الاسود ليعمل في مزارعهم . بينما الإنكليز يحاربون مبدأ الرق ويكافحون النخاسة وتجارة الرقيق وفضلا عن ذلك فان المرأ لا يسعه أن يترك موضوع الرق في الولايات المتحدة الأمريكية وافريقيه الجنوبية دون أن يقرر حقيقة تاريخية هي أن العلاقة بين السود والبيض في هذه الجهات ، كانت علاقة استغلال بلغ اقصى حدود السوء . استقلال البيض للسود الى جانب احتقارهم وازدرائهم وتضييق سبل العيش عليهم وازهاق ارواحهم .

فانه بعد أن زاع اكتشاف امريكا أخذت جموع المهاجرين الأوربيين تتدفق على القارة الجديدة من كل حذب وصوب وشرع هؤلاء يؤسسون المستعمرات التي اتسعت رقعتها سريعا فامتدت على طول الشاطئ الشرقي ، وتوغلت في داخل البلاد وعندما احكم الإنكليز سيطرتهم على هذه الولايات ، الجديدة إزدادت المستعمرات اتساعا كبيرا وصحب هذا الاتساع ظهور الفوارق الجغرافية بين مختلف الولايات اذا كانت الجهات الشمالية اكثر موافقة لسكن المهاجرين الأوربيين بسبب مناخها الملائم لهم وكان هؤلاء يزرعون بها الحبوب ويربون

الاغنام أما الجهات الجنوبية فهي شديدة الحرارة اعتمد أهلها على زراعة الدخان والقطن والقصب وعلى ذلك فقد عمد المستعمرون فى الولايات الجنوبية الى تسخير السكان الاصليين أى الهنود الحمر وارهاقهم ارهاقا شديدا حتى كادوا يبيدونهم جميعا وعندئذ اضطروا الى جلب الزنوج من افريقيا للعمل فى مزارعهم الواسعة فتألفت شركات من الانكليز والهولنديين الذين استخدموا القناصة و « الخطافة » لصيد الزنوج ثم تألفت شركات ملاحه لحمل هؤلاء التعساء ونقلهم من افريقيا الى امريكا مقيدين بالسلاسل والاغلال وعلى الرغم من أن الدين المسيحى يحض على الرأفة فان هؤلاء السود لم يكونوا فى نظر المستعمر الأوروبى سوى انعام واغنام يرمقونهم بهيئون المهانة والاحتقار ولا يقيمون لحياتهم وزنا ومع أن موارد الثروة الاميريكية تتوقف على ما يبذلون من جهد ونشاط فقد ظلوا منبوذين . ولو الغى الرق وقتذاك دفعة واحدة فى الجنوب لحدث انقلاب خطير فى حياة البلاد الاقتصادية .

وواقع الأمر أن هؤلاء الزنوج كانوا يعيشون فى عز دائم وجهل مطبق لا يلقون من (أسيادهم) الأوربيين غير الازدراء والمهانة فلا يعيش الأسود بين الأوربيين عيشة الناس بل عيشة الدواب التى تسكره طول حياتها على عمل مالا ينفعها . والأسود لا ينال من القوت والغطاء والراحة إلا ذلك القدر الضرورى الذى لا يستطيع بدونه الاستمرار على العمل . وهو إذا أراد أن يعيش من الأرض التى يشتغل عليها كان لزاما عليه أن يجيب كل مطالب الملاك . فان هجر الأرض واقبل على

العمل في المصانع والمعامل وقع في رق أغنياء آخرين من البيض يقوم
بخدمتهم طول حياته ويمضي ساعات طويلة في عمل آلي متجانس مضر
بصحته متلف لحياته . وان هو استوطن الأرض وسد عوزة واكتسب
من كده فان أحدا لن يتركه وشأنه بل سرعان ما يجد أنه مطالب بدفع
الضرائب فاذا تأخر في الدفع وسداد الضريبة خرجت الجنود لمحاربه
حتى يجرح أو يقتل أو يرغم لإرغامه على العمل المرهق المستمر
حتى تحصل الحكومة منه على كل ما تريد وتطلب وهكذا على حد قول
أحد الكتاب الانكليز : —

« يبدأ عمل الرجل الأبيض من مطلع الشمس وينتهي
عند غروبها . أما الرجل الاسود فليس لعمله بداية ولا نهاية »
غير أن هذه المآسى ما كانت لتستمر طويلا دون أن يتحرك ضمير
الانسانية ويتصدى المصلحون الاجتماعيون لمعالجة مشكلة الزوج
والرق عموما .

ومن طريف ما قرأت في هذا الموضوع ما كتبه أحد المفكرين
الاحرار « شارلس برادلو » حيث يقول مامعناه أنه لم يلبث أن أتى دور
تحرير العبيد من الرق بفضل كتابات الفلاسفة ونتيجة لتفكيرهم . فاني
لا أعرف أن دينا من الأديان الذائعة حرم الرق في الماضي ونهى عنه
وقد ظل الدين المسيحي يؤيد العبودية حتى أن (كتاب العهد القديم)

صادق عليها بقوانين خاصة بها ولم يعلن (كتاب العهد الجديد) بطلانها ولم تبدأ حركة التحرير إلا في الثلث الأخير من القرن الماضي ولا يستطيع مسيحي أن ينكر أن حركة أبطال الرق في أمريكا الشمالية لقيت مقاومة عنيفة وعنادا مريرا من رجال الدين في الولايات المختلفة وأن الانجيل ومنبر الوعظ ونفوذ الكنيسة كل أولئك يعضدون ملاك العبيد ويقاومون إلغاء الرق .

لقد ظل العالم المسيحي يقتنص العبيد ويتجر بهم مدة ثمانمائة وألف سنة ولقد كان شارل الخامس أول عاهل راجت على يده تجارة العبيد بين العالمين — القديم والجديد — ومنذ مائة سنة أو أقل كانت مدينتا برستول وليقربول المشهورتين بالورع والتقوى في ذلك الوقت محطات مفتوحة للوارد والصادر من الرقيق حتى نمت ثروتهما واتسعت تجارتها الادمية من البيض والسود على السواء . وفضلا عن ذلك فقد كان النصارى من اليونان في القرن التاسع يبيعون الرقيق إلى العرب . وفي القرن الحادى عشر للميلاد كانت تباع العاهرات علنا يبيع الرقيق في أسواق مدينة روما وكان الربح المتحصل من بيعهن تستولى عليه الكنيسة . وعندها قام (وليم ويلد فرس) يكافح في سبيل أبطال الرق قال معاصروه أن مسيحيتها مشبعة بروح الإلحاد لأنه كمطالب بإلغاء الرق كان في نظرهم لا يؤمن بما أتت به الكتب المقدسة . وذكر على وجه الخصوص سفر الخروج (الاصحاح الحادى عشر) وسفر اللاويين (الاصحاح الخامس

عشرة) فقد حدث يوم ١٨ فبراير سنة ١٧٩٦ أن وقف ولیم بلرفورس في مجلس العموم البريطانى يقول أن فرنسا الملحدة والتي انتشرت بها الفوضى (بسبب الثورة المشتعلة بها) قد قصت على الاسترقاق ومنحت الحرية للأفريقيين بينما لاتزال انكلترا مبقية على الاسترقاق ومحتفظة بنظام يتسم بالقسوة والعنف ومن يقايا العصور البائدة . على أنه مانادى بليرفورس بضرورة إبطال الرق حتى تبين له أن المحاكم الانجليزية وما لها من سلطان قضائى كبير ، ومحافل اللاهوت الأسقفية وما لها من نفوذ دينى شامل كانت جميعها متحفزة للوقوف ضده ومعارضة وتسفيه آرائه وأبدى جورج الثالث وهو الملك المتدين اشمزازه الظاهر من هذه الجراءة : جرأة المطالبة بإبطال الرق فضلا عن ذلك فقد عارض مجلس اللوردات في منح الحرية للعبيد المناكيد .

ومنذ نيف وستين سنة قامت جمعيات التبشير المسيحية بالدعوة إلى الحرية بين عبيد (دمراره) وهى المستعمرة التى تحكمها دولة انكلترا المسيحية فلم يكن نصيب أعضاء هذه الجمعيات سوى المحاكمة أمام قضاة مسيحيين — عينتهم الحكومة الانكليزية فى هذه المناصب — وصدر الحكم على هؤلاء المبشرين بأنهم مجرمون عصاة جريرتهم التبشير بين العبيد بالعنق والحرية . وقد اتهم أحد المبشرين عند محاكمته فى (دمراره) أمام محكمة عسكرية مركبة من أفراد مسيحيين بأنه يحاول تحريض العبيد على كره أسيادهم وبيعث فى نفوسهم عدم الرضى ويشيع روح الترد والتآمر والكراهية ضد أسيادهم الشرعيين ، فقضت المحكمة باعدام ذلك المبشر

المطالب بالغاء الرق : شنعاً وأن يظل معلقاً في جبل المشنقة حتى تزهر روحه . وهؤلاء القضاة كانوا من أعضاء الكنيسة . أما المبشر البائس فكان من المطالبين بالاصلاح والمنادين بتحرير الجنس البشرى من العبودية .

وفي سنة ١٨٢٣ نشرت الجريدة الرسمية في (دمراره) أمراً فيه ما نصه :

« نحن لانسمح لاي واعظ ديني بأن يعمل على تنوير أذهان عبيدنا »
« الذين هم ملك لنا باعتراف القانون إلا أتيح لهم في الوقت نفسه أن »
« إستنارتهم ومسيحياتهم لا تمنع بتاتا من بقاءهم عبيدا لنا أبد الدهر . »

تلك قصة محاولة إبطال الرق في العالم الغربي المتحضر وفي الدنيا الجديدة . ثم في تلك الاصقاع التي وصل إليها نفوذ المستعمرين البيض في القارة الافريقية . وهي قصة تختلف اختلافاً كبيراً في جوهرها وتفصيلها عما يحدثنا به المعاصرون عن الرق وحال الرقيق عموماً في مصر والسودان في عهد محمد علي باشا وخلفائه . وآية ذلك ما كتبه الدكتور مادن مثل جماعة مكافحة الرق البريطانية الذي زار مصر في أيام محمد علي الكبير . فكان مما قاله : —

« أن حالة العبيد في وادي النيل لتفضل حالتهم في أى دولة مسيحية »
« بدرجة كبيرة ، وينسب في العادة حسن معاملة العبيد في البلاد الإسلامية »
« إلى سماحة الدين الإسلامي ذلك أن من تماليمه الرحمة بالناس ومعاملة »

« العبيد بالحسنى واعتبارهم إخوانا لآسيادهم وإعتبار الآسياد مسئولين ،
« عنهم أمام الله . »

ويؤيد هذا القول ما جاء فى خطاب لشقيقة المعاصر الانكليزى
E . W . Lanes (لين) صاحب المؤلف المشهور عن عادات المصريين
وأخلاقهم وطرق معاشهم أيام محمد على ، وقد زارت هذه السيدة مصر
مع أخيها فتأملت : —

« أن كثيرين ممن انتزعوا من أحضان أمهاتهم ورعاية آبائهم وهم ،
« صغار يجدون عند من يشترونهم حنان الأم وشفقة الأب ويرفلون فى ،
« ثياب غالية ويأكلون مالمذ وطاب فى بيوت آسيادهم ويتمتعون بحرية ،
« يندهش لها الإنسان . »

والواقع أن الرق فى السودان أقرب وأدنى إلى الإصلاح منه إلى
العبودية والسبب فى ذلك أن العبد الذى يدخل فى حوزة سيده لا يلبث حتى
يصبح بعد مدة قصيرة من الموالى لأنه متى تعلم العربية وكيف يتوضأ
ويصلى ويقرأ الفاتحة وينطق بالشهادتين ثبت إسلامه من المعروف
إن الإسلام يحرم استعباد المسلم لآخيه المسلم ولا يفرق بين العربى والعجمى
فى ذلك .

ومعظم زواج السودان يعيشون على جانبي النيل الأبيض ويقطنون
فى جهات بحر الغزال وبحر الجبل وبحر الزراف والسوبات والبيبور أحد
روافد النهر الأخير وبحر العرب وصحراء الديوم الواقعة إلى الجنوب

الغربي عن مديرتي دارفور وبحر الغزال وهم من الفريت والبور والجلال
والأنواك والدنكا والنوير والشلك والجاوير الخ .

وكانت الأساليب التي إتبعها محمد علي باشا وخلفاؤه من بعده في
إبطال الرق تهدف إلى القضاء على الفوارق الجنسية وتعمل من أجل خلق
وحده متماسكة من أبناء وادي النيل لخميتها المساواة بين الجميع في الحقوق
والواجبات فعمد أولا إلى تجنيد الدنكا والشلك في سلك الجيش المصري
واستخدم منهم أعدادا عديدة في شتى مصالح الحكومة ثم عمل على إعادتهم
إلى بلادهم بعد تهذيبهم وتدريبهم حتى ينشروا ألوية الحضارة بين عشائرتهم
وهكذا أمكن بعد مضي حوالى ثلاثين سنة أن تألف من هاتين القبيلتين
(الدنكا والشلك) مديرية فاشودة وقد أنعمت الحكومة المصرية على
(كيكوم) مك أي «ملك الشلك» بالرتبة النانية واستمر كيكوم مقبما على
ولائه للحكم المصري حتى قتله المهدي عند ما رافق كيكوم حملة راشد بك
هيمن ضد أنصار المهدي وأتباعه ، وكذلك كان حال قبيلة الدنكا وهي
نازلة على الضفة الشرقية من النيل الأبيض وإسم مكها (يول كور)
وأكبر أولاده الحاج عيسى يول الذي هرب من ظلم الانجليز وقصد إلى
مصر وبعد أن حضر إلى مصر ذهب إلى مكة لتأدية الحج وعاد بعد تأدية
الفريضة ثم ألتحق بالوفد السوداني ممثلا لقبائل الجنوب تحت رئاسة
الاستاذ الكبير إسماعيل الأزهرى .

وحسنت حالة الشلك والدنكا فلبس أهلها الملابس وسترُوا عوراتهم
وإشتهروا بصيد التماسيح وفرس البحر (بالبادنجا) وهي آلة كهلب

المراكب ولكنها حادة الأطراف وقد تعلموا صناعات عديدة كصناعة
الفخار ونسج الدمور وصهر الحديد الخام وطرقه وصنعه حرا بآ ومزاريق
وآلات حديدية للزراعة يتجرون بها بين قبائل الزنوج الأخرى وذلك
كله بعد أن كان المرء منهم يهيم على وجهه في الغابات لا يدرى أين يذهب.
تصادفه شجرة مثمرة فيأكل من ثمرها وينام تحت ظلها مثل الشللكاوى
أو الدنكارى في ذلك مثل أبناء القبائل الزنجية الأخرى — وعلاوة على
ذلك فقد نشأوا على عادات مزرية تحط من شأن النوع الإنسانى : أمثال
ذلك أنه إذا مات أحدهم خلفه أكبر أولاده على زوجاته فإذا ولدت
الزوجة منه ولداً دعاه أخاه لأنه يعد نفسه وكيلا عن والده المتوفى ولاحق
له فى نسله وذريته وهم ينامون على الرماد المتخلف من حريق روث البقر
ويغسلون وجوههم بالبول ويمزجون به اللبن والمسلى وياً كلون الميتة
ويشربون الدم والزنجى البدائى أقرب إلى الحيوان منه إلى الإنسان وهو
من الناحية الاقتصادية عامل إتلاف وإبادة وحسب . فلم يكن ينظر
إلى أبعد مما يصل إليه نظره فلا يرى الأشياء إلا كما يراها الطفل ،
فالشمس مخلوق حى ، وكذا الرياح والأمطار وغيرها ، والمرض
تسببه الأرواح الشريرة التى تدخل الجسم — جسم المريض وتطرد
الأرواح الطبيعية ، والأحلام هى وقائع حقيقية للنفس فى تحولها
عند ما يكون الجسم نائماً ، ويظن الزنجى أن خياله فى الماء هو جزء منه ،
ولذلك فأن الكثير منهم يحترسون عند ما يسرون حذاء النهر من وقوع
ظلمهم على الماء ، خوفاً من أن يصل إليه التمساح ، فيسحبهم إلى النهر عن

طريق الظل ويأكلهم . . . وينظرون إلى أغلب الشرور كأنها فضائل .
 فالسرقة والقتل والنهب في نظرهم رفعة ومجد . فقد يقتلون الملوك عند
 ما يتأخر المطر أو يكثر المرض والشيوخ عند ما يشبع الغذاء . وقد
 يهجرون الأولاد أو يبيعونهم عند ما يكثر ، فهم لا يعرفون الضمير ،
 ولا يعتقدون إلا بقانون أخلاقي واحد هو قانون الحق للأقوى ،
 محافظاً على وجوده بحرب دائمة مع القبائل الأخرى ويعيش من اليد للنفم ،
 حياته مملوءة بالآخطار والمجازفات ، يصطاد الحيوانات والأسماك ويقال
 لمعيش .

وكان الزوج في حالهم الأولى يخضعون لطائفة الرؤساء والسادة
 الذين أبى عليهم جهلهم وحققتهم إلا أن يعيشوا في اضطراب وفوضى دائماً
 لا يعرفون حياة الاستقرار والسكينة بل يشنون على بعضهم بعضاً حروباً
 شعواء تهلك بسببها مئات من أبناء قبائلهم ويقدمون أسراهم إلى (الجلابة)
 إلى جانب ما يقدمونه إلى هؤلاء من سلع فيأخذون بدلا منها مما لدى
 (الجلابة) من البضائع تروق لهم وتسد حاجاتهم كالتمر والسكر والدمور
 وقماش الجاوه الأحمر والبقر والخز والودع والحرايب وآلات الحفر
 والزراعة وكانت هذه تجارة رابحة تدر على الجلابين خيراً عظيماً . وأسس
 هؤلاء في الخرطوم شركات تجارية ربحت أموالاً طائلة . وأنتهى الأمر
 بهؤلاء الجلابين أن اقتسمت شركاتهم مناطق النفوذ الواسعة في إقليم النيل
 الأعلى وبحر الغزال والسوبات خصوصاً ، يبنون فيها الزرائب ويجمعون
 فيها سن القليل والعميد وغير ذلك من السلع . ثم تألفت من الزرائب

الكبيرة المشايخ واستأثر الجلابون بكل نفوذ ، وأعتمدوا على البنادق والبارود في تأييد سلطتهم على الزنوج . وكان في أثناء سطوة هؤلاء الجلابين أن انكمش نفوذ الحكومة حتى صار لا يتعدى قرية اللبسى على النيل الأبيض جنوباً وصارت الحالة تنذر بضياغ كل هذه المناطق من حكومة الخرطوم وعلى ذلك فقد بدأت الحكومة تعمل لانتزاع هذه الزرائب والمشاريع من الجلابين . وقد صارت الحكومة في تنفيذ هذه الخطة سيرا معتدلاً حكماً في أول الأمر بيد أنه ما أن حضر صموئيل بيكر وشارل جورج غردون حكماً على مديرية خط الاستواء حتى تبدل الحال ، وركب الاثنان متن الشطط فاعلنا في مطاردة الجلابين ومصادرة الزرائب والمشاريع وإجلاء أصحابها عنها . فضلاً عن ذلك فقد أبيع قتل الجلابين وإهدار دمهم وأسرف بيكر وغردون في إتباع سياسة النار والسيوف لإبادة تجار الرقيق حتى انتشر الذعر وعمت البلوى وذاعت هذه الأخبار المروعة بين أهل الجلابين وذويهم ونما خبر هذه « المعارك » إلى عصابات السطو وقطاع الطرق أمثال أبو مسيكة وخلافه فانضم هؤلاء إلى الجلابين يشدون أزهرهم في هذا النضال المرير فبلغ عدد المقاتلين حوالى ٥٠ ألف رجل من الشجعان المغامرين ثم عقدوا إتفاقاً مع سلطنة دارفور وكانت وقتذاك ما تزال دولة مستقلة ولم تدخل بعد في حوزة الخديوية المصرية يدفعون بمقتضاها مكوساً معلومة لحكومتهم « دارفور » لقاء السماح لهم بالمرور في بلادها عند سفرهم إلى أسيوط حيث يبيعون بضائعهم ثم يبتاعون بأثمانها ما يلزمهم من بنادق وبارود وقد

حاولت الحكومة المصرية منعهم فلم تنجح وخشيت أن ينجح من تشدها في ضرورة إغلاق منافذ تجارتهم في القاهرة وأسيوط أن تتحول هذه التجارة إلى طرابلس ومراكش .

وبما يحذر بنا ذكره أن الصفاء كان ما بين رؤساء الزوج والجلالين موطداً ويقبل كلا الفريقين أخذ « الفدية » لانقاذ الأسرة من الموت ومن المعروف أن الزبير باشا اقتدى خمسمائة عبداً امرد من ملك النجاش كان محكوماً عليهم بالأعدام فجندهم الزبير ضمن جيشه الذي فتح به دارفور وعند ما أساء الانكليز إلى الزوج وأوسعوهم جوراً وعسفاً اجتمع رؤسائهم وقرروا إرسال وفد مؤلف من خمسة من أبناء ملوكهم وخمسة آخرين من الكجور « أى العلماء » حتى يذهبوا إلى الخرطوم ومنها إلى مصر فيرفعون هناك ظلامتهم إلى الخديوى على أنه ما وصل هذا الوفد إلى الخرطوم حتى قبض الانكليز عليهم وسجنوهم في سجون الخرطوم فماتوا جميعاً من سوء المعاملة ونجا منهم واحد فقط هو ابن ملك غورغورو وقد لجأ إلى أسرة المرحوم يوسف باشا الشلالى فأكرمت الأسرة وفادته لما كان بين والده الملك وبين الباشا المذكور من متن الصداقة وصداق الود والولاء وقد ظل ابن الملك غورغورو مقيماً في بيت الشلالى إلى وقت سقوط الخرطوم فأكرمه المهدي ورفع منزلته وما برح مقدماً عنده حتى مات المهدي وخلفه عبد الله التعايشى فزاد في إكرامه وأبقاه لديه بمثابة « ممثل » من قبل ملوك خط الاستواء يفاوضه في كل ما يلائم مصلحة الفريقين :

ومما هو جدير بالذكر وله دلالاته البالغة أنه حدث في سنة ١٩٢٧
أن طلبت عصبة الأمم من حكومة السودان بيانا وافيا بعدد الزوج الذين
حررتهم الحكومة وأولئك الذين كانوا لا يزالون حتى هذا الوقت في
رقصة العبودية والاسترقاق مع شرح حالة كلا الفريقين الاجتماعية
والاقتصادية وشمرت الحكومة عن ساعد الجد لاعداد هذه البيانات
ولكن سرعان ما تبين أن العبيد الذين لم يحصلوا على أوراق عتقهم وظلوا
يعتبرون في حكم القانون والعرف رقيقا ، وكان يجب كذلك أن تقدم به
البيانات المطلوبة ، قد اندمجوا في أسرات أسيادهم وأصبحوا من الموالى
وتعذر على الحكومة أن تصدر لهم أوراق العتق وعلى ذلك فقد عمدت
الحكومة إلى اعتبار « مرافيت » الجيش المصرى من الزوج رقيقا محررا
فاستحال الاحصاء المطلوب بيانا باعدادهم وأما هؤلاء « المرافيت »
فكانت الحكومة قد أسكنتهم بعد تسريحهم من الجيش « حلالا » أى
قرى معينة تعرف بأسم الملكية كغرب الجاش فى كسلا وحلال كايوش
فى سنار وحلال الديوم فى الخرطوم والديوم فى جوز رجب . وقد يكون
من المفيد أن نذكر بمناسبة إقامة مرافيت الجيش فى الحلال التى اختارتها
الحكومة لاقامتهم أن حكومته السودان الحالية ألغت النظم التى اتبعتها
حكومة « التركية » السابقة ذلك بأن تلك الحكومة كانت تعيد المرافيت
من العساكر إلى قبائلهم الأصلية حتى يشيعوا فيها المعرفة ويستطيع بفضل
اندماجهم فى هذه القبائل أن يرشدوا أهلها إلى الهدى والنور وينقل أهل
هذه العشائر عن الجنود « المرافيت » ما كسبه هؤلاء من خبرة تمكنهم

من السير رويداً رويداً في طريق الحضارة والرقى كما كان يحدث مع أبناء قبيلتي الدنكة والشملك ولكن حكومة السودان الحالية سرعان ما خالفت — متعمدة — هذا النظام فحرمت عودة أى عسكري « مرفوت » إلى قبيلته بدعوى أنه عاشر في حياته العسكرية « البونج » أى « ناس بحر » من سودانيين ومصريين ففسدت طباعه لدرجة صار يخشى منها على انتشار السوء والفساد بين أهل قبيلته ، وتلك دعوى باطلة لأن غرض الحكومة الحقيقي — كما يعرف السودانيون وغيرهم ممن شهدوا وما زالوا يشهدون هذه الحوادث لم يكن سوى إثارة عوامل الحقد والبغضاء بين أهل البلاد والتفرقة بين مختلف الشعوب السودانية وآية ذلك أنها ألقت من هؤلاء المرافيت قوات من « الملشيا » تحت رئاسة الأميرالاي المرحوم السيد بك عبد الله في شرق السودان والمرحوم الأميرالاي فرج بك أبو زيد في كوستى وسنار — مهمتهما إذلال للقبائل العربية كقبائل كنانة والجمدة والبقارة كذا الهدندوى والحلانقة وبنى عامر والبيجه عموماً في شرق السودان تحت ستار إنشاء رقابة فعالة على نشاط العرب محافظة على الأمن والسلام وفضلاً عن ذلك فقد اتخذت الحكومة من هؤلاء « المرافيت » أداة طيعة تنشر بين « الرقيق » في حوزة القبائل روح التمرد والعصيان على أن الحكومة لم تشأ أن تكتفى بذلك إعداد هؤلاء المرافيت في الاحصاء المطلوب وكانت أعدادهم محدودة فلجأت إلى وسيلة أخرى لاظهار مدى تقدمها ونشاطها في هذه الناحية الانسانية — تحرير الرقيق — وعلى ذلك فقد عمدت إلى استخراج تذاكر حرية لكل الرقيق الذى كان ما يزال

يعيش في كنف أسياده من وقت المهدية فثار الأهالي بسبب ذلك واحتجوا على عمل الحكومة قائلين « إنه إذا نفذت الحكومة أمر إعطاء تذاكر الحرية لهؤلاء الرقيق فإن دولاب العمل سوف يقف لا محالة و يترتب على ذلك عدم قدرتنا على دفع الضرائب فتتجدد من ثم تلك المأساة التي كان من نتائجها ثورة المهدي وعلى ذلك فقد اجتمع المفتشون بمديري مديرياتهم واجتمع المديرون بأعضاء مجلس الحاكم العام في الخرطوم وقرر الجميع إبطال تحرير التذاكر وإبقاء العبيد في حوزة أسيادهم بالقوة إذا دعا الأمر وبالفعل لم تلبث أن وزعت جنود الهجانة والمشاة الرابكة على الحلال فحضر بوا نطاقا حولها وأعادوا العبيد إلى أسيادهم تحت اسم «عمال زراعة»

كلمة ختامية

ونرى قبل أن نختم هذا الفصل أن نأتى على خلاصة وجيزة لأعمال النخاسة التي كان يقوم بها الانكليز في إختطاف السود من أفريقيا ونقلهم عبر البحار ثم بيعهم كالأنعام الهمل للمستعمرين منهم في جزر الهند الباسفيكية للاستعاضة بهم عن السكان الأصليين من سكان تلك الجزر والذين أيدوا نتيجة الارهاق في زراعة قصب السكر والاستك وجوز الهند .

فمن الحقائق المعينة أن الانكليز — والانكليز وحدهم — على حد قول السيد « رسل » في كتابه (اللون والجنس والامبراطورية) « كانوا يختطفون الرقيق الأسود من أفريقيا وينقلونهم على مراكب انكليزية إلى منقطع العمران في جزر الباسفيكي لبيعهم للمستعمرات الانكليزية ، كما

تباع السلع العادية ، وكانت تجارة مربحة درّت الخيرات الوفيرة على تجار الرقيق من الانكليز والبرتغاليين . وأستمرت المراكب الانكليزية في نقل الرقيق الاسود من افريقيا إلى جزر الهند الغربية وشمال أمريكا الانكليزية بمعدل ١٢.٠٠٠ عبيد في السنة وقد ازداد هذا القدر حتى بلغ ٢٥.٠٠٠ سنوياً . وهكذا ظل الحال والانكليز يخطفون الرقيق ويلقونه في كهوف مظلمة من قعور المراكب من أواسط القرن السادس عشر حتى القرن الذي انتهت فيه سنة ١٧٧٦ حيث قدر عدد ما اختطف من العبيد : ٣,٥٠٠,٠٠٠ هلك خمس هذا العدد أثناء الترحيل وقذف به في البحر طامعاً للأسماك وأيّد الربع نتيجة سوء المعاملة أو نتيجة نوع آخر من أنواع الإبادة كما قيل في البرلمان الانكليزي حينذاك .

وفي سنة ١٨٣٣ أعلن مجلس العموم الكف عن الاسترقاق ، ولكن ذوى الشأن من حكام المستعمرات إستخفوا بهذا العطف وتعاموا عن تنفيذه كأنهم كانوا في حاجة إلى رؤية ثورة يقوم بها العبيد توقظهم لرؤية البركان الذي كانوا يقفون فوق فوهته . وفي النهاية تم إلغاء الاسترقاق وتقرر صرف تعويض قدره ٢٠,٠٠٠,٠٠٠ جنيه لملاك العبيد في «السكاب» و « جزر الهند الغربية » و « مارتوس » وقدّر أن هذا المبلغ يعادل نصف ثمن الرقيق المعتوق .

وسرعان ما فطن أسياد الرقيق إلى طريقة فذة للاستعاضة وهي الاستعباد المالى فتسارعوا إلى الاستيلاء على الأراضى الزراعية . وحتى

إذا ما امتلكت الأرض كافة . أعطيت قطع صغيرة للعبيد بالايحارات
الثقيلة وحل امتلاك الأرض وتأجيرها بالطرق الحديثة محل العبودية
القديمة وهكذا أبطل الانكليز طريقة امتلاك الرق بالاغتصاب واستعاضوا
عنها برق إختياري أقوى من الرق القديم دعامة وأكثر احتمالا على عدد
المستعبدين .

وإذا غنيت أيها القاريء الكريم بتتبع أطوار السود في جميعا وجزر
الباسفيكي وأمريكا لوجدت أقواما لا قوا من العسف والاضطهاد ما لم
يكن له مثيل في أسيا أو أفريقيا . فحكايتهم مترعه بشقى مناحي العواطف :
من يأس إلى يقين ، ومن جهاد إلى إستسلام ، ومن شجاعة إلى استكانة ،
ومن تشاؤم إلى تفاؤل . ومن يقين وصبر . إلى شك وجزع وامل ، فهم
قوم قاوموا أشد صنوف اليأس ، وأقسى مصاعب العبودية ، قوم مرت
عليهم من الدهر حقبات سود قاحلة موحشة ، لم يكن لهم من سلوى سوى
حفلات المآتم : فهم يودعون موتاهم ويستلمون مصائرهم ويصفون فيها
رجائهم بالحرية التي تنتظرهم في أوطانهم يعد الممات !!! فاذا نوح الزنجي
شرح لك كيف عانى في كنف أقوام بيض البشرة شقر الوجوه . هو
عنهم الغريب المنبوذ . عوائد ومشارب تختلف في كل ناحية عن عاداته .
ثم يصف مآسيه وآماله ، وصبره وإيمانه ، وثقته ويقينه ، وحرية مستقبله
في دار الخلد !!! هناك يجتمع بأمه وكوخه وثوره وأبقاره — وهناك
يسمك ذنب ثوره المختار الذي ولد معه في يوم واحد ويطلقه في الغابة

ويغنى وراؤه ثم يقبله من غرته ويقول له : أنت أخى وقربى وتمام
مزاجى وكيفى

وتتجلى خصائص الزنجى في تعبيراته . عند ما يجلس القرفصاء بين
الباكين أثناء رقصات الموت وينوح قائلاً : لقد انهكنى العذاب والتعذيب
يا أمى ! انهكنى حتى الموت ، ولكن الموت ما كان أضعف منى ساعة ، مثله
فى هذه الساعة . فانا . ها أنا ذا اليوم بين ذراعيك . وها أنت ذا بين
ذراعى . أعناقنا عناق الراح بالماء . والنور للعين ، والحلم للنمام ، فما
أحب هذا اليوم إلى قلبى وأشبهه ، لا يهولنك يا أمى عياء فى مفاصلى .
وضباب فى عيني ، وذهول على وجهى . فما أذكر . وهل الزمان يذكر .
كم فلك قطعت . وكم من السنين طويت قبل أن أدرك هذا اليوم ، يوم
لقاتنا ... وإلى وإن غاب عنى الكثير مما كان منى ومنك ، ما نسيت يوم
أدركنى فيه الرجل وهو يطاردنى وكان ممتطياً جواداً له أربعة أرجل يسابق
به الريح ، بينما كنت فى بطن الوادى . والجوع قد هدد حيلى وكاد يحفف
أمعائى . فلما أعيانى الطراد . تلسكأت . فما كان من الرجل الأبيض إلا أن
سدد بندقيته إلى ساقى وصاح : خذها يا أبغض الناس وعدو الكفيلة .
فسقطت ولما إقترب منى طعنته بحربى فى ساقه أيضاً ، وسال منه الدم ،
كما سال منى الدم ، ولكن آه يا أماه بندقية الرجل الأبيض فتاكه تقرب
له البعيد ، وتطيع له العاصى . وما مثل حربى بالنسبة لبندقته إلا كمثل
البيضة والحجر ... كان مع الرجل الأبيض رجل أبيض آخر . تعاونا
على اكتافى ثم أحضرت ولا أدرى كيف أحضرت . وعشت ولا أدرى

كيف عشت فوق أرض ليست بأرضي ، وتحت سماء ليست بسماي .
ومهما أصابني من الشقاء فلا زالت تلك الساعة — ساعة إخطائي ، حية
في فكري ، أما في قلبي فسكره للانكيز قتال ، وعداوة لا تنام .. فهو
سبب شقائي وبعدي وبلائي ، وعذابي وتعذبي .

كلما مرضت كلما بدت منابت الأمل في نفسي ، وأخذ خيال السعادة
يحيطني ، فأرى بعين البصيرة وجهك الصبوح . وعينيك الصافيتين ،
وأراني أقضم من خيرات بلادى كالجراد . ولم يكن شيء في الوجود يعادل
مسرتي حينما أحضر مواكب الموت ، فأنوح وأرتاح في البكاء والنحيب .
ماذا يضير الأسود لو انتحر ومات ، إن طريق البغضاء كثيف ، مملوء
بالعظم الرميم والجماجم الممشمة ، وعلى قارعة الطريق أشلاء هي فريسة
السكره والحقده — كره الأبيض للأسود . والأسود للأبيض ، لن تغفر
لأولئك الذين أساؤا اليانا وأذاقونا مر العذاب . . . ورموا بنا بعيداً —
بعيداً عن الأوطان ونبدونا نبذ الذباب ثم يلتفت للمعزيين ويقول :
إخوان الشقاء : دعوا خيالكم يمرح حيث شاء ، ويدور معتمليا الآفاق
مع العواصف ، ويتدفق مع المياه الجارية ، ويصفر مع الريح العاتية ،
دعوه يتحد مع الأغصان المتمايلة ، ويفتح الغابات الكثيفة . أتركوه
يتلألأ مع قوس قزح ، ويتلاشى مع الغيوم السارية . لتغنى نفوسكم
وتتدفق الأبدية خلال أرواحكم ، لكي يغمركم رضى الله :

الفصل الخامس

سيرة الزبير باشا رحمه

« نشأة الزبير باشا . ممارسته للتجارة . مشاركته لأبي عمورى المسرى . فتح بحر الغزال ودارفور . استدعاء الحديوى له . حودته للسودان - شجاعته الممتازة »

الزبير باشا رحمه من قبيلة الجميعاب « نسبة إلى جميع العباسى » وهى قبيلة مشهورة بالشجاعة والكرم والإقدام شأنها شأن عرب السودان الذين بزوا فى هذه الصفات فى سائر الاقوام . وللزبير مكانة كبيرة فى تاريخ السودان الحديث بدأ حياته بالتجارة ثم سافر فى سنة ١٨٥٦ مع ابن عمه إلى بحر الغزال فى خدمة على أبو عمورى وكان من تجار أصحاب المشاريع وأصله من نجع حمادى وكان كثيرون من التجار السودانيين والمصريين يمتلكون الزرائب فى هذه الأصقاع ، وأشتهر الزبير بالشجاعة والإقدام بفضل دفاعه عن زريبة على أبو عمورى فهابه الأهالى وتمتع بسمعة عظيمة فما لبث حتى أنشأ لنفسه تجارة ناجحة درت عليه أرباحاً طائلة فزاد طمعه وتوغل فى البلاد حتى وصل إلى بلاد لم يصلها غيره من التجار ثم قصد إلى بلاد النيام حيث تزوج من ابنة سلطان النيام وأسمه « تكمه » فارتفع

شأنه وازدهرت تجارته وابتاع من ملك النمام خمسة مائة من الشبان الأشداء
دربهم على حمل السلاح وكان هؤلاء الشبان من الذين حكم عليهم بالموت
ومن المتوقع أن يذبحهم القوم وياً كلون لحومهم جرياً على عادة أهل البلاد .
غير أن ملك النمام سرعان ما صار يخشى من شدة بأس الزبير وازدياد
سطوته فاضطر الزبير إلى الخروج إلى ملك آخر يدعى « دويه » كان
عدواً للملك « تكمه » فأرسل حموه رجلاً للفتك به في الطريق فتغلب
عليهم الزبير وأعاد « تكمه » الكرة فجهز جيشاً كبيراً لقتال « دويه »
ففر دويه وقومه وأرغم الزبير على الالتجاء إلى بلاد « قولو » وملكها
يومئذ « عدوه شكو » وكان هذا الملك الأخير قد قتل أخا الزبير قبل ذلك
فقامت الحرب بينهما وكانت الغلبة في النهاية للزبير فقتل أولاً عدوه شكو
وبعد معارك أخرى مع ابن « عدوه شكو » الذي خلف أبيه واحتل
« باية » عاصمة القولو واتخذها عاصمة للملكة وسماها « ديم الزبير » ثم
عاهد عرب الرزيقات على فتح طريق التجارة بين بحر الغزال وكردفان .

وفي سنة ١٨٦٩ وصل إلى بحر الغزال الحاج محمد البلالي المغربي
ومعه مائتين من الجنود السودانيين بقيادة محمد أفندي منيب وأربع مائة
من الباشزق وستائة من الخطيرة فقاتلهم الزبير وانتصر عليهم وكان
حكماء السودان وقت ذاك جعفر باشا مظهر .

ولما رأى ملك النمام اتساع ملك الزبير أرسل يهدده ويطلب منه
ترك الملك والسلطان ويعود إلى الاشتغال بالتجارة بحجة أنه جلابى فأبى

الزبير وعلى ذلك فقد اشتعلت الحرب بينهما وانتهى الأمر بانتصار
الزبير فضم إلى مملكته بلاد النمام وكان الرزيقات في هذه الاثناء قد
نقضوا العهد وقطعوا طريق «شكا» وهو طريق التجارة بين ممتلكات الزبير
في بحر الغزال وبين كردفان والسودان الأوسط فطالب الزبير في عام
١٨٧٣ من ابراهيم سلطان دارفور وكان الرزيقات يدينون له بالطاعة
أن يعاونوه على اخضاعهم فبعث إليه برسالة اختتمها بقوله « ونحن نتقدم
إليكم بهذا الكتاب واثقين أنكم متى علمتم حال هؤلاء العربان — الطغاة
الذين خرجوا عن طاعة سلطنتكم منذ ثلاثين سنة ونيف تنجدونا بسرية
من جيشكم حتى إذا ما تم لنا إذلالهم نعود فندسوى الأمر بيننا فيما أن
تتركوهم لنا لنحكمهم بالقسط والعدل وإما أن نتركهم لكم فتفتحون
الطريق وتقدمون لنا النفقات التي نبذلها على عساكرنا في الحملة عليهم ،
ولما لم يجب السلطان ابراهيم على هذا الكتاب واستمر الرزيقات على
فعالهم . فقد حاربهم الزبير وهزمهم شر هزيمة ، وأسر فقيهمهم عبد الله
التعايشي وصمم على قتله ولم ينبج عبد الله من القتل إلا بفضل وساطة المشايخ
الذين متعوا الزبير من قتله وعبد الله هذا هو الذي صار فيما بعد خليفة
للمهدى وحكم السودان ستة عشر سنة وهو رجل شجاع وجرىء وطموح
ومغامر ومكافح ومشهور بالدهاء ولولاه لما حدث للمهدى من ظهور
ولما كانت المهديّة .

وترتب على انتصار الزبير وهزيمة الرزيقات ثم دخوله «شكا» أن

توترت العلاقات بينه وبين السلطان ابراهيم لان دارفور كانت تعد هذه الجهات من أملاكها وعول ابراهيم على الانتقام من هذه الهزيمة وطرد الزبير من شكا . فبادر الزبير بتقديم كل البلاد التي فتحها في بحر الغزال وشكا إلى الحكومة الخديوية المصرية ، وطلب من الحاكم اسماعيل أيوب باشا أن يرسل من قبله حاكما عليها باسم خديوى مصر . فأنعم عليه الخديوى برتبة البكوية وعينه حاكما على بحر الغزال وتم الاتفاق بعد ذلك على فتح دارفور ذاتها على أن يسير اسماعيل أيوب بجيشه على هذه السلطنة جهة الشرق بينما يزحف الزبير عليها بجنده من جهة الجنوب . وسقطت دارفور في قبضة الحكومة المصرية وأنعم على الزبير برتبة الباشوية بيد أن تدخل الزبير في شؤون الفتوح الجديدة لم يلبث أن غير عليه اسماعيل أيوب باشا ثم تطايرت الاشاعات بأن الزبير كان يهدف إلى الاستقلال بالبلاد التي عين حاكما عليها فوجد أن من الخير له أن يحضر إلى مصر لمقابلة الخديوى شخصيا حتى يعرض على سموه « حقيقة الحال » — على حد قول الزبير والنظر معه ومع رجال حكومته في تنظيم البلاد التي تم فتحها على يده والبلاد التي يمكن إلحاقها بحكومة الخديوى في المستقبل فجاءه تلغراف من مصر بالموافقة على سفره .

ومع ذلك فقد نصحه رجاله بعدم السفر إلى مصر قائلين « إذا أنت سافرت إلى مصر حجزوك هناك ومنعوك من المجيء » فلم يسمع لنصيحهم وقام من الفاشر بين مظاهر الإجلال والاکرام فنصبت له أقواس النصر في كل بلد نزل فيها من الفاشر إلى الخرطوم ومن الخرطوم إلى القاهرة

واستقبل بالحفاوة والتهليل في كل مكان وأطلقت له المدافع في الخرطوم
وفي القاهرة لوصفه من الغزاة الفاتحين ، وقد حدث ما كان يتوقعه أهله
ورجاله فاحتجزه الخديوى في مصر تحت ضغط الانكليز .

وفي سنة ١٨٧٧ رافق الجيش المصرى الذى أرسله الخديوى اسماعيل
لنجدة الدولة العثمانية في حربها ضد روسيا وأظهر في الميدان من ضروب
الشجاعة ما كان موضع التقدير والإعجاب وقد ظل الزبير على ولائه
للحكومة على الرغم من قتل ابنه سليمان غدرا في سنة ١٨٧٩ على يد
« جسى » الإيطالى على نحو ما تقدم بيانه .

وفي سنة ١٨٨٣ انتدب لقتال عثمان ذقنه في طوكر فشمز الزبير عن
عن ساعد الجد وجمع آلايا من العساكر في مصر ولكنه عدل عن الذهاب
في آخر الامر لأنه أبى أن يكون تحت إمرة باكر باشا الانكليزى .
وفي سنة ١٨٨٤ استنجد به غردون لاستلام السودان على الرغم من أن
الانكليز كانوا قد أهانوه بوصفه « نخاسا » وشنعوا به وفضلا عن ذلك
فقد عارض الرأى العام الانكليزى معارضة شديدة في ذهابه إلى السودان
بسبب تلك الحملة الشعواء التى آثارها ضده جمعية إبطال الرق في لندن .
وفي سنة ١٨٨٥ نفى الزبير إلى جبل طارق بتهمة أنه كان يتفاوض سرا
مع المهدي فظل هناك ثلاثين شهرا ثم أفرج عنه وعينت له الحكومة
المصرية راتباً شهرياً قدره ٢٨٩ جنيتها يتساوله حتى وفاته وينقل لذريته
من بعده .

وبعد استرجاع السودان أذن الانكاز للزبير باشا بالعودة إليه
فبادر احمد افندى حمدى سيف النصر « الفريق احمد حمدى سيف النصر
باشا » باستضافته فى منزله الخاص وهو قصر عظيم بجهة أبو روف على
البحر الأعظم فى أم درمان فسر الزبير باشا سروراً عظيماً بهذا الأكرام
وكان حمدى افندى وقتذاك مأموراً لمدينة أم درمان وله النفوذ والسلطان
وكان أهل السودان فى ذلك الحين أشبه ما يكونون بالمريض الذى نجى من
الخطر وبدأ يسترد عافيته رويداً رويداً وذلك بعد ما نزل بهم من محن
وشور على يد حكومة الدراويش فقدم حمدى افندى الممكن والمستحيل
من الخدمات لحفظ مكانة الزبير باشا فى أعين قومه مما حبيبه إلى قلوب
السودانيين وجعل ألسنتهم تلهج بالشكر والثناء عليه حتى أن الزبير باشا
نفسه خاطبه ذات مرة « بزجل » سودانى مازال القوم هناك يرددونه
إلى يومنا هذا فى شتى المناسبات :

« أنت يا حمدى رفقى وتمام كبفى »
« ودرجة عصاى وبلاى وسيفى »
« مطمورة غلاى مونة خربفى وصيفى »
« ستار عيوى عند نساى وجارى وضيئى »

والزبير باشا رجل رقيق الفؤاد ، كثير الوداد ، محب للخير ، أخ
للقيوى وأخ للضعيف ، صاحب للوضع وصاحب للشريف . فهو للسيف
واللضعيف ، عصا وكرباح « على حد قول أهل السودان » أى رجل
حرب وكرم وظرف وشده وكان الزبير باشا يميل إلى المرح والفكاهة
« الى جانب ما عرف عنه من الشدة والصرامة وقوة البأس

سأله حمدي افندي سيف النصر ذات مرة عما كان يتنابه من هموم وهو
أسير في جبل طارق فأجابه : كنت « أدوبي » أي أغني بغناء السودان
وأخاطب أعضاء جسمي لأن الحراس لا يفهمون لغتي وأنا أجهل لغتهم
أيضا فكنت أقول :

« كم يا الساق أخلفناك فوق بشارية »

« وكم يا اليد جلدنا بك جنى الوحشية »

« وكم يا الفم أطعمناك مراره وشية »

« مستين نموت أصل العمر عاريه »

وقيل أن الزبير باشا دخل مرة على مدير الخرطوم « استانتين باشا »
فلم يحفل بقدمه كما يجب فما كان من الزبير إلا أنه نهره قائلا إنني لست
بالرجل الذي لا تعيره أهمية لقد فتحت بلادا مساحتها أضعاف أضعاف
جزيرتك فكيف لا تحفل بي وتقدم لي ما يجب من الاحترام . فأدرك
استانتين خطأه وقدم اعتذاره وقد عرف الزبير بالشجاعة والمروءة إلى
جانب ما عرف عنه من الشدة والصرامة وقوة البأس والجرأة والاقدام .
فالشجاعة هي التي دفعته إلى مجاهر ما وراء المستنقعات وجعلته يكتشف
مديرية بحر الغزال ويمتلكها ، والشجاعة هي التي دفعته لركوب الأخطار في
محاربة الرزيقات أشد القبائل بأسا في الغرب ثم افتتاح سلطنة دار فور .
وكان للزبير باشا سيف ثمين يعتز به ويسطحبه في غدواته وروحاته فلما
مات وقع هذا السيف في يد المرحوم « الشريف يوسف الهندي » فاعتز به

وحفظه عنده كتمذكار ثمين لا يقدر بمال لما كان لصاحبه الزبير من المنزلة
الممتازة والقدر العظيم وكان الشريف يوسف الهندى أكبر الزعماء مقاما
عندما أعيد فتح السودان وقد ظل يقيم فى سنار حتى سنة ١٩٠٨ ولكن
الانكليز بدأوا يشكون فى اخلاصه بعد واقعة السكتفيه بسبب ايوائه لفلول
انصار واد حبوه عندما كان فى سنار فدعوه للاقامة فى الخرطوم ولولا
مكانته الروحية التى تبلغ حد التقديس فى نفوس انصاره ومريديه من
قبائل العرب لمثلت به الحكومة كما ضيقت الخناق على غيره من الزعماء
والفقهاء الدينيين امثال الشيخ محمد التوم طلحه وغيره من الذين لجأوا إلى
مكة وماقوا بها.

وكان من اظهر صفات الزبير باشارحه الكرم والنجدة وحب الجاه
والسلطة فوصفه كتاب الافرنج بأنه رجل تجارة وسياسة وحرب . وقال
بعضهم بأنه خلق لحكم الناس وقد اشتهر بالكرم منذ كان ملكا فى بحر
الغزال حيث يقصده الكثيرون من اهل البيوتات السودانية الذين اخنى
عليهم الدهر فيعمل على تيسير الحال لهم وازالة الضيق والكرب عنهم وقد
تردد فى بعض المجالس المبالغ التى انجد فيها قومه فبلغ مجموعها نحو من مائتى
الف جنيه وبقيت داره مفتوحة يقصدها كل من خانه الدهر او عبس
الخط فى وجهه حتى انتقل الى رحمة الله سنة ١٩١٤ ودفن فى الجبلى . ومن
المؤلم حقا بل من الخطأ الفاحش هو أن لا ننظر الى الزبير باشا نظرة كبار
وتمجيد مع أن تاريخ حياته مفعم بالبطولة ويا حبذا لو عنيت الشبيبة
المصرية والسودانية بشأن هذا الرجل العظيم واظهار مدفته بما يليق به
من الكرامة والتقدير .

الفصل السادس

سيرة الامام محمد احمد المهدي

نشأة المهدي . ميلة للطريقة السمانية وتهجده . اتصاله بالشيخ
الفرشي . اتصاله بعبد الله التمايشي به . تجواله في البلاد . اتصاله
بتجار الرقيق وتأييد هؤلاء لدعوته . ادعاؤه المهدي

ولد محمد احمد المهدي في جزيرة ضرار من أعمال دنجله « دنقله »
حوالي عام سنة ١٨٤٣ واسم أبيه « عبد الله » وأمه « زينب » وهو من ذرية
رجل صالح يسمى « الحاج الشريف » اشتهر بالتقوى ويتصل نسبه إلى
جد له اسمه « نجم الدين » وهو جد الكتوز وينتسب إلى أهل البيت .
وسمى نجم الدين هذا مدفون في القاهرة في حي يسمى باسمه يقع بين
سبيل أم عباس بالعباسية وباب النصر ، وله قبة فوق ضريحه ومسجد
وأماكن موقوفة عليه يدخل في نطاقها مدرسة الطائفة الاسرائيلية ومصنع
الطرايش ومصالحه النقل الميكانيكي « جراج الحكومة » وقاربقة الألوان
المصرية للبيب نسيم الكيمائي المعروف ومطبعة الحلبي ومصانع أخرى
وعدة منازل للسكنى وأرض فضاء وكل ذلك أوقف يرعاها الآن عبد الرؤف
افندي عرفات الحسيني بموجب وراثته بهذه الاوقاف وتعيينه
ناظرا عليها .

ومحمد احمد المهدي قبل ادعائه المهديّة كان طالب علم انخرط في عداد تلاميذ الشيخ محمد شريف ولما كتبه عاب في استاذة وتناول عليه فاتخذ الأستاذ ذلك ذريعة لمحو اسمه من بين أتباع الطريقة السمانية وقال له الأستاذ محمد شريف اذهب فقد صدق فيك المثل القاتل « الدنقلاوى شيطان مجلد بجلد إنسان » .

وكان الامام محمد احمد يحب الطريقة السمانية المذكورة وأصولها وكان له خلفاء وتلامذة يلتقون أورادها ويقرؤون روايتها فلم يكن ترك هذه الطريقة وأتباع غيرها أمرا يسهل عليه قبوله فتذلل لأستاذة محمد شريف وطلب منه العفو مرارا فلم يجبه إلى طلبه .

وكان في « الحلويين » بين المسلمين والكامليين — على النيل الأزرق وشيخ من مشايخ هذه الطريقة يدعى « الشيخ القرشى » الذى أخذ الطريقة السمانية رأسا من مؤسسيها « الشيخ الطيب » وكان بينه وبين الشيخ محمد شريف مناظرة شديدة . فلما رأى محمد أحمد من أستاذة هذا الابهاء التجأ إلى « الشيخ القرشى » وجدد عليه العهد لهذه الطريقة .

أذاع الامام محمد احمد أنه انفصل عن شيخه « محمد شريف » لما رآه من مخالفة الشريعة والسنة وكان محمد احمد قد احتقر لسكناه غاراً في جزيرة أبا أقام فيه وقضى وقته في الصلاة والصيام وقراءة القرآن والتهجد والمناجاة والبكاء في الأسحار والتضرع إلى سر الأسرار والتوسل إلى الله أن يهدي القلوب إلى اكتشاف الموعود ويصل إلى رؤية الحبيب المحبوب ومطالعة أنوار المقصود .

فاشتهر بالزهد والتقشف والغيرة الدينية وانتشر صيته في السودان فأخذ الناس يفدون إليه من الجهات الأربع وكان المسافرون في النيل الأبيض يقفون بالمراكب والوابورات — خصوصا الجلابة أى (ناس بحاره) فيقدمون إليه الهدايا ويطلبون منه البركة فيباركهم ويوزع الهدايا والعطايا على الفقراء زهدا منه وتقشفا .

وفي سنة ١٨٨١ توفى الشيخ القرشى، فخرج هو وأتباعه وتلامذته إلى الحلبيين وبني فوق قبر الشيخ قبة — فانضم إليه أتباع القرشى واتخذوه بعد وفاة شيخهم شيخا عليهم فقيوت شوكتهم وكثر أنصاره وقد بالغوا في محبته وتعظيمه حتى قالوا في كتب طريقته أن المهدي المنتظر سيكون منهم وأن الشيخ القرشى قيل وفاته أو مأبها إلى محمد احمد .

وكان من عادة الامام محمد احمد أن يخرج من جزيرته (أبا) سائحا في بعض أصحابه لارشاد الناس حتى يقلعوا عن المعاصي وإنذارهم بما سيلقونه من عذاب إذا هم استمروا على مخالفة تعاليم الاسلام . واستطاع محمد احمد أن يجول في أنحاء البلاد من دنقله شمالا إلى سنار جنوبا ومن النيل الأزرق شرقا إلى كردفان غربا وكان أهم ما استرعى نظره ماشهده بعينه من مودة الناس على الحكومة وحنينهم إلى الماضي . ماضيهم القريب — قبل أن يفد عليهم صموئيل بيكر وأتباعه وغردون ومساعدوه وقبل أن يتحكم فيهم أعداء الدين — كما يقولون — وقبل أن يصادروهم في أخص خصائصهم الدنيوية والدينية وكان محمد احمد يواسي أهل القتل من الجلايين ويترحم على الموتى من ذوى قرباهم ويحضر مناجاتهم ويعدهم بالفرج القريب والخلاص من السكر العظيم والعذاب المقيم —

ولما كان الناس بدورهم يمتنون النفس بظهور المهدي الموعود وكانوا كلما رأوا رجلاً يفضلهم عقلاً ودراية غيوراً على الدين وأهله ظنوه المهدي . فإنهم سرعان ما صاروا يلهجون بأن الفقيه محمد أحمد هو نفسه المهدي المنتظر . وأما محمد أحمد فقد رأى فيما كان عليه الأهلون من استعداد لقبول دعوى المهديّة وتلك الحال التي وصل إليها الإسلام من الضعف والوهن حتى صار الكفار يستعبدون المسلمين ويصادرون أموالهم وأرزاقهم تحت ستار أبطال الرق ومكافحة النخاسة . نقول أنه رأى في ذلك كله مشجعاً له على الجهر بدعوته ، علاوة على ذلك فقد كانت نفسه مقطوعة على التشيع لمذهب الشيعة الذي يعتقد بغيبة الإمام الحسن العسكري فاندفع بحكم الضرورة والطبع بنشر دعوته وبهسيء الأذهان لقبول المهديّة وتأييدها عند ظهورها وكان في هذه الأثناء أن وفد عليه رجل من الغرب هو عبد الله التعايشي كانت له اليد الطولى في ظهور المهديّة وانتشارها ذلك بأن التعايشي كان أول من ناصر محمد أحمد وأيد دعواه وآزره وقواه برجاله الأشداء وبدعائه وسعة حيلته ولولا عبد الله التعايشي لما قامت للمهديّة قائمة ولما استمرت بعد وفاة المهدي نفسه ستة عشر سنة . قيل أن عبد الله التعايشي عندما رأى محمد أحمد لأول مرة وقع مغشياً عليه ولم يفق من غشيته إلا بعد ساعة أو أكثر . ولما أفاق عاد فنظر إلى الإمام محمد أحمد وتقدم لمصاحفته فأغشى عليه مرة ثانية ثم أفاق وتقدم إلى محمد أحمد حبوا على الأرض فأخذ يده وشرع يقبلها وهو يرتعد ويبكي . فقال له محمد أحمد : « من أنت يا رجل وما شأنك ؟ » قال يا سيدي

أنا عبد الله بن محمد تورشين من قبيلة التعايشة البقارة (رعاة البقر) وقد سمعت بصلاحك في بلاد الغرب فجئت لأخذ الطريقة عنك . وكان لي أب صالح — من أهل الكشف وقد قال لي قبل وفاته إنك ستقابل المهدي المنتظر وتكون وزيره وممكن سره وقد أخبرني بعلامات المهدي وصفاته . فلما وقع نظري عليك رأيت فيك العلامات التي أخبرني بها والدي بعينها فابتهج قلبي لرؤية مهدي الله وخليفة رسوله ومن شدة الفرح الذي شملني « أصابني الذي رأيته » .

فاستبشر محمد أحمد بهذا القول لأنه أصاب هوى في نفسه ويتفق مع ما كان يضمه . فبايع عبد الله التعايش وقربه إليه وجد في بناء قبة الشيخ القرشي فأتمها وعاد بتلاميذه ومعهم عيد الله التعايشي إلى جزيرة « أبا » .

وما أن عاد إلى « أبا » حتى شرع في دعوة الناس سرا بإرسال الكتب إليهم وذلك في ٢٩ يونيه سنة ١٨٨١ وكان أول من خاطب في ذلك الأخصاص من الفقهاء والأعيان ومشايخ الطرق والقبائل فأفصح عن دعواه وخرج بها وصار يحثهم على القيام معه لنصره الدين والهجرة من أما كنهم للانضمام إليه ومبايعته على الجهاد في سبيل الله قائلا : —

« إنه قد رأى النبي (صلعم) بعيني رأسه يقظة فاجلسه على كرسيه »
« وقلده سيفه وغسل قلبه بيده وملأه إيمانا وحكمة ومعارف منيعة وأخبره »
« بأنه الخليفة الأكبر والمهدي المنتظر وأن من شك في مهديته فقد كفر »
« ومن حاربه خذل في الدارين »

وقال في بعض كتبه

« إني لا أعلم بهذا الأمر حتى هجم عليّ من الله ورسوله من غير »
« استحقاق فأمره مطاع وهو يفعل ما يشاء ويختار وقد أمرني سيد »
« الوجود (صلعم) بمكاتبة جميع المسلمين ودعوتهم إلى الهجرة »
« معنا إلى محل يكون فيه قوام الدين وإصلاح أمر الدارين « فلا بد أن »
« تحضروا معنا في رمضان ولا تتخلفوا فيحل بكم الحشران »
« وجاء في بعض كتبه : —

« لقد خلّفتني عليه الصلاة والسلام بالجلوس على كرسيه مرارا »
« بحضرة الخلفاء الأربعة والأقطاب والخضر عليه السلام وأيدني الله »
« تعالى بالملائكة المقربين وبالأولياء الأحياء والميتين من عهد آدم إلى زماننا »
« هذا وكذلك المؤمنون من الجن . وفي ساعة الحرب يحضر معهم أمام »
« جيش سيد الوجود (صلعم) بذاته الكريمة وكذلك الخلفاء الأربعة »
« والأقطاب والخضر عليه السلام وأعطاني سيف النصر من حضرته »
« (صلعم) وأعلمت أن لا ينصر عليّ معه أحد ولو كان الثقليين الانس »
« والجن . ثم أخبرني سيد الوجود (صلعم) بأن الله جعل لك على »
« المهديّة علامة وهي الخال على خدى الأيمن وكذلك جعل لي علامة »
« أخرى تخرج رايه من نور وتكون معي في حالة الحرب يحملها عزرائيل »
« عليه السلام فيثبت الله بها أصحابي . وينزل الرعب في قلوب أعدائي فلا »
« يلقاني أحد بعداوة إلا خذله الله . الخ الخ الخ »

ولما رأى محمد احمد أن الناس على استعداد لقبول دعوته أعلن أنه المهدي المنتظر وأعلن الجهاد وصمد في دعوته وصار لا يثنيه عن عزمه وعيد ولا يخيفه تهديد .

ويعتقد أهل السودان وفقهاؤهم أن محمد احما كما يقدم على إعلان أنه المهدي المنتظر لولا وثوقه من مؤازرة الجلايين له وانضمامهم إليه لأن الجلايين كما هو معلوم كانوا أشبه بالملوك والقواد منهم بالتجار وهم مغامرون وأهل كفاح وكان شعارهم عند الخروج إلى الغزوة لصيد الرقيق وجمع سن الفيلة وريش النعام والصمغ وما إلى ذلك « ياموت أحمر ياذهب أحمر » فيخرج الواحد منهم وفي حاشيته من الأتباع والعمال مئات الألوف من الرجال الشجعان الذين لا يشتهون الموت على الفرائش « كالغوين » (أي النساء) وكان هؤلاء يقومون لقيام رئيسهم المعروف « بالمنجل » ويقعدون لقعوده :

وكان من عادة الجلايين أن يملأوا بحزيرة « أبا » وهم في طريقهم إلى بلاد الزنوج مقر الفقيه محمد احمد وكان بهذه الجزيرة (منجره) لصنع المراكب وتعميرها فيضطروه إلى الإقامة بالجزيرة أياما عدة يتجهزون خلالها فينتهزون هذه الفرصة ويقدمون للفقيه (الاكراميات) ويطلبون منه الدعوات فيباركهم وينذرون له النذور فيقبلها ويوزعها على الفقراء من الخير ان أي طلبة العلم وكان محمد احمد عند خروجه من الجزيرة يكرم بتوديعهم في حفل ديني كبير فيؤمهم في صلاة تقليديه ثم يبتهل إلى الله

« رازق النسر في السماء والحوث في بطن الماء أن ينظر إليهم بعين عنايته »
« ويسقيهم من صوب نعمته ويظهرهم بجناح رعايته وأن يكون لهم في بلاد »
« الغربية وديار الوثنيين حرزا منيعا وركناد فيئا ودثاراً وطيثاً وأن يرحى »
« الوثنيين بالوثنيين ويخرجهم سالمين حتى يعودوا إلى ذويهم غانمين . »

« وكان محمد احمد على اتصال بمجريات الحوادث في مصر وما سبق »
« منها على وجه وجه الخصوص قيام ثورة احمد عرابي وشجعته هذه »
« الأحداث على المضى في دعوته ثم لم تلبث يد القدر الساخرة أن غيرت حياته »
« فعظم شأنه واستفحل خطره وقد لازمه التوفيق في جميع خطواته فإنه »
« ما شهد موقعة إلا انتصر فيها ولا حاصر مدينة إلا فتحها فجاء هذا التوفيق »
« دليلاً ساطعاً على تعدد كراماته وآمن الناس برسالاته وصاروا يتلقون »
« تعاليمه كما يتلقى الناس الوحي في عصر الأنبياء »

تأكد لدى المهدي بأنه أصبح المالك المتصرف في شئون السودان .
فأعلن بأنه سيفتح الأمصار ويخضع الملوك والسلاطين وأنه لن يقضى حتى
بفتح الحرمين وبيت المقدس وينزل إلى الكوفة ثم يموت هناك بيد أن
المرض لم يلبث أن دهمه فأصابته حمى (التيفوس) وكانت إصابته شديدة
لم ينج منها فتوفي في يوم ٢١ يونيه سنة ١٨٨٥ ودفن حيث مات وبني
له الدراويش قبة أطلقوا عليها اسم «قبة المهدي» وأمروا الناس بزيارتها
ومما هو جدير بالملاحظة والذكريات أن هذه القبة كانت المؤسسة الوحيدة
التي أنشأها الدراويش خلال السنوات الطويلة التي تمتعت فيها (المهدية)
بالسلطان المطلق في السودان . وعند استرداد السودان اطلق كتش

قنابل مدافعه على هذه القبة فهدمها ، ثم أباد رفاة هذا المسلم الذى جاهد فى الله حق الجهاد . وقد ظلت القبة مهدمة مهجورة حتى سنة ١٩٤٧ . ثم أوحى الحكومة إلى « السيد عبد الرحمن باشا المهدي » نجلة بتعميرها والاحتفال بتجديدها لكي تكون مزارا يحج إليه المريدون والاتباع ! . وما يستحق الملاحظة بل ويحز فى القلب ويؤلم نفس كل مسلم غيور ما تديعه الجرائد الإنكليزية — من وقت لآخر من أحاديث مؤيدة بالصور الفوتوغرافية ومنسوبة إلى السير عبد الرحمن المهدي باشا نجل الإمام محمد أحمد المهدي صاحب السيرة أقربها ما جاء بمجلة News Weekly المؤرخة فى ٩ ديسمبر سنة ١٩٤٦ تحت عنوان The Black Knight أى الفارس من الأسود مظهره أياه فى ثوب من الاستتكار للسنين التى جرى عليها والده فى محاربة الإنجليز أعداء الدين ومصادقته لهؤلاء الأعداء ! .. جالسا على مقعد غم وبجانبه صورة فوتوغرافية لموقعة « كرى » أى موقعة أم درمان وهى مأساة تستحق البكاء والنحيب .

وإذا أصفنا ما يقوم به « نجل المهدي الكبير » السيد عبد الرحمن المهدي باشا من مسعى غير مشكور فى سبيل ربط السودان بعجلة الإمبراطورية الانكليزية غمرنا الأسى والشجن وقلنا مع القائلين « النار تخلف رماد » وفضلا على أنه أنزلق فى هذا السبيل فقد تهاون فى سيف أبيه الذى قال عنه والده « أن النبي صلى الله عليه وسلم سلمه هذا السيف يدا بيد ليحارب به أعداء المسلمين » ، غير أن السيد تهاون وانى إلا أن يسلم أعز تراث إلى ملك الإنجليز سنة ١٩١٩ (وهو السيف) ولكن جلالته — تفضلا منه — رفض قبول السيف ورده إليه ولا نعلم أين هذا الأثر الميمون الآن !! ؟

الفصل السابع

الثورة المهدية

قداسة . من هو السوداني . المهدي ، الخُص ، الغادي ،
المسيح قديما . ثورة المصريين القدماء من اجل الخلود . الثورة
المهدية من اجل الدين . انصار المهدي . هل كانت الثورة ضرورية
استقالة غردون باشا . تعيين رءوف باشا . اعلان المهدية . اقالة
رءوف باشا . تعيين عبد القادر باشا حامي . اعماله . استدعاء
عبد القادر باشا لمصر . تعيين هلاء الدين باشا . تعيين هكس باشا
حاكما عسكريا وهزيمته . تعيين غردون باشا من قبل الدولة
الانكليزية واليا عاما على السودان بتصد اخلائه . اخطاء
غردون باشا . سقوط الخرطوم في يد المهدي

تناول الكتاب المسألة السودانية باهتمام منقطع النظير هذه الأيام
وذلك بعد أن ظل الحديث عنها وقفا على الصحف دهورا طويلا تنقل
من أخبارها تتفا صغيرة من وقت لآخر ، ومرد هذا الاهتمام البالغ —
في اعتقادي — إلى نضوج الوعي القومي في السودان . هذه حقيقة لا سيبل
إلى نكرانها وان كان مما يدعو الى الأسى أن يقف بعض أبناء السودان
من اخوانهم وأبناء عموماتهم المصريين موقف الإنكار فالعداء فالنضال ،
طلبا للانفصال ، حين جد الجدد وأتى اليوم العصيب ، فتجازى السودان
مصر شرا بخير ونكرا بمعروف وسيئة بفعل حسن .

نعم أن هناك من يدعون الى الانفصال ويقولون بلسان غيرهم:
« انظروا إن المصريين يريدون أن يستعمروا السودان حتى يستعبدوا
أهله ويستبدوا بأمور الناس ويستأثروا بخيرات البلاد ويجددوا مآسى
الماضى » وفاتهم أن مصر الأم البارة الشقيقة ما استهدفت فى الماضى بتاتا
ولن تستهدف فى المستقبل « استعمار » السودان . وكأنى بمصر ولسان
حالتها يقول « كلنا فى الهم شرق ، وواجبنا أن نوحّد جهودنا حتى يمكننا
الخلاص مما نحن فيه من محن وارزاء . حتى اذا استرجعنا حقوقنا المغصوبة
» استطعنا كاشقاء أن نتعاون فيما بيننا على البر والتقوى ولا نتعاون على
الاثم والعدوان .

أما عن مآسى الماضى المزعومة فامامك التاريخ قلب صفحاته وسوف
تجد أن من سنة ١٨٢١ الى سنة ١٨٨٤ كنّا أنا وأنت يدا واحدة وكانت
الخيرات موفورة والرخاء شاملا والتقدم مطردا . على أن اعصارا مالبث
حتى قام بعد ذلك فلف كلانا فى باطنه .

« وفى سنة ١٩٠٠ الى سنة ١٩٢٤ كنّا أنا وأنت مغلوبين على
أمرنا عدونا المشترك يعمل على استغلالنا واستنزاف دماننا واشاعة
الكراهية والبغضاء فى نفوسنا بعضنا ضد بعض وما زال هذا العدو حتى
يومنا هذا يقدم السيئة للوطنى ويخفى الحسنة عنه وعلى هذا السنن جرت
الحكومة فهى تسمى الى المحسن وتحسن الى المسيء .

« فيتحتم علينا أن نفحص الواقع وننزل عند أحكامه ولا نميل مع

الهوى لأن كل تفكير تحركة الشهوة صائر إلى الفساد . وكل تدبير تسوسه الغفلة مصيرة إلى الافتضاح . فتدبروا الأمر بإسادة قبل أن تهجم عليكم عهد العناء والضعف والخضوع والاستسلام والرضا والاتكال وأنكم أن لم تعتبروا بالماضى ويستفيدوا من دروس الحاضر خفت عقولكم فلا تشتروا العاجل بالآجل واذكروا قوله تعالى :

« وليخش الذين لو تركوا من خلفهم ذرية ضعافا خافوا عليهم . »
« فليتقوا الله وليقولوا قولاً سديداً » .

وبعد فلنعد إلى ما كنا بصددہ فنقول :

درج كتاب التاريخ على وصف القواد والزعماء والوقائع وحسب كآنة لم يعيش على أرض السودان ولم يسعد ويتألم غير هؤلاء القواد والزعماء والملوك . وكأنما كانت الأمة السودانية معزل عن الحوادث يفصلها عن العالم سياج سميك لا ينفذ منه شيء وكأنما فנית شخصية هذه الأمة في شخص حاكمها فأسمى تاريخها هو سيره ذلك الحاكم المتصرف في مقاديرها مهما ساءت سيرته وكانت حياته مليئة بالشور والاثام .

لذلك رأيت لزاما على أن أبادر - قبل الكلام عن الثورة المهدية - بالحديث عن السوداني كما عرفته نتيجة اختلاط ومعاشرة دامت أكثر من ربع قرن . وهذا أقل ما يقتضيه عرفان الجميل ، ما يدعو إليه الواجب .

فطر السوداني على السكرم فكم من شيخ يملك ثروة طائلة نزعته نفسه إلى الشرف فافنى ماله في اكرام الضيف حتى أصبح في آخر أيامه فقيرا يكاد لا يصيب إلا الكفاف فاذا دنا الآجل جمع أولاده وقال لهم

« يا بني الاعزاء اجعلوا نفوسكم وأموالكم لضيوفاكم فتفوزوا بحسن السيرة واحترام الناس لكم » ثم تقبض روحه وهو مبتسم مسرورا .

والسكرم من الصفات الانسانية السامية التي تدل على سماحة الطبع ورقة الوجدان وتقدم الفرد في سلم الارتقاء الاجتماعي وهو صفة كلية تنفرع عنها عدة خلال نبيلة . فالكريم لا بد أن تطوى حناياه على الرأفة والإيثار والنجدة والاحساس بالأم الغير . والسودانيون فقيرهم وغنيهم على السواء يعتبرون الكرم واجبا لا معدى عنه ولا شكرا عليه .

وكثيرا ما يقصد الحلة غريب فتتنافس العائلات في الظفر به ولها في ذلك نواذر طريفة تكشف عن أريحية أصيلة وكرم طبيعي .

والسوداني علاوة على جوده الدائم وإحسانه الذي لا ينقطع على الفقراء وما يدفعه من ضرائب للحكومة يؤدي سنويا جزءا معلوما من ماله للمحروم وصاحب الحاجة باسم زكاة رمضان . فهو اشتراك بالفطرة من هذه الناحية .

والسوداني لا يخلد إلى الذل والصغار مهما تجملت له وجوه المصاعب والآقدار . وهو لا يطمح إلى المعالي إلا لينال صيتا بعيدا وشهرة واسعة بين أقرانه وفي عشيرته . وهو يؤثر المنون على العار والهوان . يدفعه الفخر إلى سامي الفضائل الطبيعية . وعزة النفس تنهض به إلى الانتقام أو طلب الحق أو الأخذ بالثأر . وهذه تعد من التواميس الشريفة يقيم لها السودانيون منزلة رفيعة ويقرّبونها من الفرائض الضرورية المقدمة .

فإن ضغينة أخذ النار تبقى مستورة في صدورهم كالنار تحت الرماد فتأني
الريح ويكشف الرماد فتظهر الأحقاد بالانتقام .

ويمتاز السوداني إلى جانب كرمه بحيائه الرائع . حياء الرجولة الذي
ينزه صاحبه عن الصغائر ويسمو به عن ارتكاب النقائص الخلقية . فقلما
تجد سودانيا يترنح من شدة السكر أو يتنوه بالألفاظ الشائنة التي تنبو
عنها الأسماع والسوداني من الناحية الدينية مؤمن أعمق الإيمان ملتزم
حدود الشريعة قائم على أحسن وجه ممكن . وهذا التمسك بالدين يدعوه
إلى البر ويحض على مكارم الأخلاق وهو لذلك من أسباب نشر المساواة
وتفشي العدالة بين الناس .

والسوداني موفور الذكاء وقاد القرية قوى الذاكرة يحفظ الحوادث
بتفاصيلها الدقيقة مهما بعد لها العهد . ويتجلى ذكاء السوداني وما يتحلى به
من صفات عقلية وخلقية فيما فطر عليه كل أولئك الزعماء والقادة والمصلحين
الذين يتسلمون زمام البلاد كلما أدلهم الخطب وتلهفت الأمة إلى زعيم
قادر يستطيع الوصول بسفيتها إلى بر السلامة بل وأن ظهور هؤلاء
القادة والمفسكرين اليوم لا سطع دليل على الشجاعة الباهرة والإباء
الصادق الذي يتحلى بهما أبناء السودان الميامين . وهذه الصفات نفسها
هي التي ساعدت - إما مباشرة وإما بطريق غير مباشر - على ظهور المهديّة
في السودان ونجاح دعوتها .

• • •
« والمهديّة » وما تنطوى عليه من رغبة ملحة في الخلاص من المساوئ .

التي يشكو منها قوم من الأقسام وما تهدف إليه من بناء حياة محررة سعيدة
قديمة العهد ظهرت في الحقيقة في صور متنوعة وفي عصور متفاوتة في
القدم ولدى أقوام وشعوب اختلفت عاداتهم وتباينت أساليب حياتهم .
وآية ذلك أن الأمم الغابرة كقدماء المصريين والبابليين والفرس واليونان
والرومان وغيرهم ، كانوا جميعا يعتقدون عند اشتداد الخطوب في ظهور
(مخلص) . أو مهدي إذا جاز لنا قول ذلك . مهمته (تخليص هذه الشعوب)
من أية كوارث اقتصادية واجتماعية أو دينية تكون قد نزلت بهم وتاريخ
الأمم القديمة مفعم بالثورات والحروب الداخلية التي ترتد في أصولها
الى رغبة الخلاص من هذه الكوارث . على يد ذلك (المخلص) أو
(الفادي) أو (المسيح) أو (المهدي) أو (المصلح) أو (الإمام المنتظر)
فتى غلب البأس على أمة صارت لا تفكر إلا في ذلك المخلص فيستولى عليها
شيء من الهوس وتصبح سريرة الانقياد سهلة التصديق أي أنها تكون بمثابة
آلة عمياء في يد الطامعين في الرياسة وأصحاب الأغراض الشخصية الذين
يستخدمونها في قضاء مآربهم حتى إذا نجحوا في قضاء وطهرهم تركوها
وشأنها تعاني بعد الفشل أنواع العذاب وتنتظر (مهديا) آخر يصدق في
هذه المرة ولا يكذب قد يظهره الله أو تستبقيه الى آخر الزمان .

والذي تؤيده شواهد عدة من التاريخ أن فكرة المخلص أو المهدي
ظهرت بين الطبقات المقهورة وهذا لا يحدث إلا بعد انتقال الأمة من دور
البداءة إلى دور الحضارة حين تأخذ السلطة المركزية تنمو وتقوى وتتسع
التجارة ويشيع بين الناس التعامل بالثقود وتكثر عوامل الغنى والسيادة

أى عوامل التفاوت والتفريق بين الأمة الواحدة وظهور الطبقات بينها وما يعقب ذلك من نزاع مستمر بين هذه الطبقات فلا يبقى لدى المغبون سوى الأمل فى ظهور (مخلص) يبعثه الله لينقذه من العبودية ويرد إليه حقه الممضوم ويزيل الفوارق بين الطبقات .

وقد تضحك الآن من ثورة قدماء المصريين الذين قاموا بها منذ خمسة آلاف سنة لى يحفظوا حقوقهم فى الخلود بعد المات حيث كان يقال لهم أنه لا يخلد بعد الموت سوى الفراعنة وعظماء الدولة . أما عامة الشعب فالى الهاوية والفناء المحقق ولذلك لا يجوز لواحد من عامة الشعب أن يبنى ضريحاً على قبره ولهذا السبب ثار الشعب المصرى وطلب من حكومته الخلود بعد الموت .

وفى السودان اشتعلت ثورة المهدي بسبب مخالفة تعاليم الدين الحنيف وتبرم السودانيين من النظم القائمة ولما كان أنصار المهدي قوما بدائين فقد انقلب القصد وبدلاً من التفكير فى إحدى الوسائل لإصلاح المفاسد وإزالة البدع والخرافات استبد بهم الخوف على الدين وسيطرت على أذهانهم الرغبة فى المحافظة عليه ، بل صارت البدع والخرافات التى كان يجب العمل على إزالتها جزء لا يتجزأ من ذلك (الدين) الذى تمسكوا به واعتقدوا بصحته وآمنوا بصدق الداغين إليه من فقهاءهم وعلمائهم ، وانحصر اهتمامهم فى الدفاع عنه كعمل لا غنى عنه اذا هم طمعوا حياة سعيدة بعد الموت وعلى ذلك فقد فضّلوا الحياة الآخرة على الحياة الدنيا

وصار كل ما في هذه الدار - دار الحياة الفانية - صغيرا في اعينهم . فهم انما يعيشون في هذه الدنيا وكانهم ليسوا منها . وقد تمكن من نفوسهم مذهب العدم أى انكار كل ما في الوجود ووجوب العمل بما يقضيه التخریب وتلزمه الإبادۃ فهم يهدمون ولا يبنون وقد استجاب الناس الى هذه الثورة الجاحية بدرجات متفاوتة وكان منهم المتطرفون كعرب البقارة والرزيقات ودغيم وكنانة فانغمسوا في أعمال السلب والنهب وسفك الدماء واستباحة الحرمات فتم على أيدي هؤلاء الخراب وسقطت البلاد في الهاوية ولم يبق لعقلاء القوم سوى التسليم بمشيئة الأقدار .

والواقع أن هؤلاء العربان لم يبقوا على شيء في طريقهم إلا أبادوه أو نهبوه حتى الأضرحة والمساجد والسواقي والشواذيف والمواشي والمزروعات وغير ذلك ويبدوا أن سبب هذه الشرور وعلۃ هذا الفساد أن هؤلاء العربان ليس لديهم من القوات والعتاد إلا ما يستخلصونه بالإكرام من أيدي الأهليين ومن قاومهم عده كافرا منكرا بل ملحدنا يستحق اللعنة والعذاب .

فلأجل أن نأكل هذه الجحافل الكبيرة ولأجل أن نجد من القوات والعتاد ما يعينها على الجهاد (في شان الله) كان لا بد لهم أن يعمدوا الى ما عمدوا إليه من الاستيلاء عنوة وأقتدارا على كل ما وصلت إليه أيديهم . هذا من جهة ومن جهة أخرى فإن هؤلاء العربان قد نشأوا على البداوة ودرجوا على الخشونة ، وحياتهم رحلة وانتقال وإغارة وقتل وسلب فلم يكن للمدن ولا للزراعات في نفوسهم من التقدير والاعتبار ما لها في نفوس

أهل الحضرة الذين استطاعوا العيش في ظلالها والإقامة في رحابها . وكأني
بهؤلاء العربان وقد أرادوا بفعلهم هذا أن يزيلوا كل أثر للحضارة في
السودان وأن يطبعوا البلاد بطابعهم الخاص وأن يخلفوا عليها مظهر
بداوتهم الذي يؤثره على ما عداه لاسيما وأن الإمام المهدي « محمد
أحمد » كان قد أوصاهم بالعمل على ترك الدنيا وزخرفها والزهو فيها لقاء
الفوز بنعيم الآخرة فركبوا متن الشطط وسلكوا طريق النهب والاعتصاب
وسفك الدماء وقضوا على معالم الحضارة في كل مكان نزولوا به يطلقون
الآعنة لغرائزهم المكبوتة وينتقمون لأنفسهم من أولئك الحضريين
« ناس بحر » الذين دانت لهم الدنيا وتذوقوا لذائذها وتعالوا عليهم بما
يملكون من مناعم الحياة .

وكان الأنصار « أنصار المهدي » وهم الذين يسمون بالدرأويش
من عرب البدو سكان الغرب الذين غلبت عليهم بداوتهم فكانوا من
الرحل لا يستقرون في مكان ولا تربطهم بالأرض التي يسلكونها روابط
وثيقة كما هو شأن الزراع وهم يتربصون مواسم الغيث حتى يخرجوا بكل
ما لديهم من نساء وإبل وأبقار وأغنام وخيول يطلبون المرعى . لا يبذلون
جهدا عقليا في تنظيم بيئتهم الطبيعية كما يفعل أهل الحضرة بل يعتمدون
على ما تفعل الأرض والسماء فإن أمطرت السماء دعوا وإن احتبس المطر
في مكان رحلوا منه إلى مكان آخر وينقسم هؤلاء البدو إلى قبائل وتعيش
هذه القبائل في نزاع دائم ولم يطبع البدوى على الاشتغال بالتجارة فإذا
اشترك مع غيره ممن يحدقونها صار عالة لا يعدو القيام بدور الدليل الذي

عرف الطرق والدروب أو الحارس الذي يحمى قوافل التجار من اعتداءات العربان الآخرين .

وأفراد القبيلة الواحدة متضامنون فيما بينهم أشد التضامن ينصرون أخاهم ظالما أو مظلوما وهم يد على سواهم . إذا ارتكب أحدهم جناية تحملت القبيلة مسؤولية الجرم وإذا غنم غنيمة فهي للقبيلة ولرئيسها خيرها وإذا أبت قبيلة أن تحميه لجأ إلى قبيلة أخرى ووالاها وحسب نفسه فردا من أفرادها . فوطن البدوى قبيلته وهذا الشعور الذى يربطه بقبيلة يحمىها وتحميه هو المسمى « بالعصية » .

ويخطئ من يظن أن أهل البادية لا دين لهم فللبدوى دين وعقيدة ثابتة ويعتقد بوحدانية الله عز وجل ويسلم برسالة النبي محمد صلى الله عليه وسلم فلا يخطو خطوة دون أن يذكر المولى عز وجل ونيبه الكريم ويعتقد البدوى ألا مرد لحكم القدر لأن الله سبحانه وتعالى هو المسبب لكل شئ . من خير أو شر فى هذا العالم ولا إرادة للإنسان ولا حرية فى اختيار الطريق الذى يسلكه ، فالإنسان ذرة حقيرة فى يد القدر يفعل القدر بها ما يشاء وكم من خارقة يعزوها البدوى إلى فعل الله وإرادته . فبينما السماء صافية والأرض فى راحة وهناء إذ بريح عاتية تتصاعد كأعمدة نحو الفضاء فتعدوا زوابع مربعة تعقبها اضطرابات جوية — من برق يخطف الأبصار ورعد يصم الآذان — الله مبدع كل ذلك . الطيور الصغيرة والوحوش الضارية تذب وتسعى وراء رزقها .

المولى يكفل لها القوت والحياة . الخصب والجذب ، الخير والشر ، الخطايا بأنواعها ، الفقر والغنى ، والمجد والهوان ، والكذب والصدق ، والموت والحياة . كل ذلك من عند الله .

ويرسم البدوى فى ذهنه صورة « الله » عز وجل أنه جائلا فى الأرض وبيده سيف المنية وكأس الحياة . فيلقى ذلك طريقا مجتهدا . ويسقى الآخر ماء الحياة .

ويحرص العربان على تأدية فرائض الدين وفى مقدمتها الصلاة وهنا ياترى يصح لنا التساؤل هل يحفظ العربان فاتحة الكتاب ؟ الله أعلم . إن عددا عظيما منهم يحملون نصها وفضلا عن ذلك فإن لهم فى واقع الأمر صلاة خاصة بهم ذلك بأنه إذا أراد أعرابى الصلاة انتصب قائما ثم رفع وجهه إلى السماء قائلا « يا الله هوئى السماء سمانك والأرض وطاتك : أقوم وأركع على جلاتك » الله أكبر « ثم يضرب يديه على فخذه ويخر ساجدا وبذلك تنتهى الصلاة وهى الصلاة القصيرة فى عرفهم . وأما الصلاة الطويلة فيقيمها العربى قائلا « يا الله . قامت الصلاة والله أقامها . يارب فرشت فراتى تقبل صلاتى . الحمد لله حمد البلاد بالمطر . حمد الأئمة بالذكر . حمد العين بالنظر . حمد من شاف عوره وستر . يا ماحى السيئات تمح سيئاتى . يا كاسب الحسنات تسكب حسناتى . وترحمى وترحم أهلى وأمواتى . أجرنى من الإثنين « منكر ونكير » . اللى بيدهم مطرق حديد : أستغفر الله على ما ألهيت . وأستغفرك على ما أسهبته .

وأستغفرك على ذلة جنيت . وأرحمني حتى وميت .

وإذا سألت إعرابيا : أين الله قال : إن الله يملأ الدنيا كأن له جوادا أسرع من وميض البرق يطوى العالم من أقصاه إلى أقصاه في لمح البصر ويراقب الأعمال كلها ويعلم النيات .

هذا ما سمعناه من أفواههم سطرناه ليدرك القارئ الكريم ما كان عليه هؤلاء الأنصار (أنصار المهدي) من الفهم والإدراك على أنه لما يجب ذكره أن هذا الكلام ينطبق على عامة البدو وحسب إذ هناك فقهاء أجلاء يعرفون أصول الدين ويؤدون الصلاة كما أنزلت ويجدون في قيادة الناس إلى الهدى والنور .

وليس الغرض أن نخوض في صحة ادعاء محمد أحمد وعدم صحته بل نكتفي بأن نشير على القارئ الكريم بمراجعة ما أبداه علماء وقته من الآراء السديده والارشادات المفيدة وبخاصة رسالة العالم الجليل السيد أحمد الأزهري وقد أثبت هذه الرسالة القيمة « نعوم شقير » في الجزء الثالث من « كتابه تاريخ السودان القديم والحديث وجغرافيته » .

ولعل أهم ما يؤخذ على دعوة الإمام محمد أحمد أنها لم تكن صريحة تهدف إلى الغاية الظاهرة التي كان يهدف إليها السودانيون وقت ذاك وهي تخليص البلاد من حكم الأجانب الكفار الذين أزهقوا أرواح البلاد وصادروا أرزاقهم وأقواتهم تحت ستار العمل من أجل إبطال

الرق والنخاسه بل لجأ المهدي بدلا من ذلك حتى يكسب الأعوان
والأنصار الى الاعتماد على الالهامات العالية وشطحات المتصوفة
والدراويز وهى أشياء وان كان قد غمض على أتباعه ادراك حقيقتها
ودقة معرفتها على أفهامهم وقتذاك فان التجارب الطويلة مدة خمسة
وستين سنة لم تلبث أن كشفت للناس عن الحقيقة وجعلت الكثيرين
منهم يشعرون شعورا عميقا ثابتا بأن تلك « الخيالات » لم تكن الا
حبايل نصبت للتمويه على العامة ولتضليلهم فكانت صدمة عنيفة تلك
التي أرغمت العديدين على الاستفاقة من سباتهم فأدركوا - بعد فوات الوقت -
أنهم كانوا آلات محركة فى أيدي طغمة من الانتهازيين الذين استطاعوا
أن يحكموا أطراف مؤامرة واسعة النطاق تمكنهم من الاستئثار بكل سلطة
فى بلادهم وإن أفضى ذلك إلى حدوث نكبة جسيمة تأتى على الحرث
والنسل وتلقى بالسودان فى أحضان الفوضى الخطيرة .

نعم كان الأجدد بالإمام محمد أحمد وأحرى به أن يكتفى باستغلال
العوامل التى تضافرت على إثارة شعور الناس ذلك الشعور الذى
كان يحمل فى طياته بذور الحقد والضغينة والانتقام منذ أن حضر
صموئيل بيكر حاكما على خط الاستواء وبدأ عهد التقتيل والتجريد والإبادة
فى السودان الأمر الذى ألهب الشعور والب السودانين ضد الأوربيين
وأهل الليفانت وكانت فى طليعة الغاضبين الثائرين جماعه (المرافيت)
من الموظفين وفلول جيش سليمان الزبير وهرون الرشيد والصباحي
وسكان البحر الأبيض ثم جحافل الجلابين الذين يتمت أولادهم ومبيد

نساؤهم في دارفور وغيرها وذلك إلى جانب كل أولئك الذين ساء لهم ان يروا البلاد تتمرغ في الفسق والدعارة والفساد . اما أن يدعى الإمام محمد أحمد الالهامات العالية ومصاحبة سيدنا الخضر واتخاذ جاسوسا على الناس وأنه خليفة النبي خاتم الرسل وحيث يقول أنه رآه رأى العين . في حالة اليقظة وأنه أجلسه على كرسيه وقلده سيفه وغسل قلبه بيده إلى آخر ما ذكر فذلك ما أخرج حركته عن دعوة الإصلاح الاجتماعي والديني إلى ثورة هوجاء جامحة لا تستند إلى شيء من الحق أو الدين الصحيح .

وبما يدعو إلى الأسف أن المهدي أعلن الجهاد وصار يحرض على قتل النصاري في وقت كان السودان يعج فيه الأجانب المسيحيين من التجار وقناصل الدول وجمعيات التبشير الكاثوليك والأورثوذكس والبروتستانت نساء ورجالا رهبانا وراهبات فأثار بعمله هذا الإحقاد الدفينة ومكن الإنكليز من توطيد أقدامهم في مصر وأكسبهم من ذلك الحين عطف وإعجاب الدول الأوروبية وضمان مؤازرتها . ذلك بأن المسلم أصبح في عين المسيحي مجرد « درويش » يجب إبادة دون شفقة أورافة . وآية ذلك أن كتشنر أباح لنفسه الإستمرار في ضرب الدراويش بالقنابل في (كرري) موقعة أم درمان مدة طويلة بعد هزيمة هؤلاء . كما هدم قبة المهدي بالقنابل بل دفعه الحقد والتشفي والاستهتار إلى نبش قبر صاحب الدعوة الإمام محمد أحمد وإلقاء عظامه في مستوقد وابور أبو طليح ، كما جاء بكتاب « واليس بادج » أو إلقائها في النيل كما جاء

بسيرة المستر تشرشل في مارس وابريل سنة ١٩٤٥ من مجلة الهلال
(صفحة ٣٦٧) حيث نقد تشرشل كتشنر لتهوره الأخير ويرى الأول
أن صيحة الانتقام والثأر لغردون قد أذهلت كتشنر ورجاله عن واجبهم
كمحاربين شرفاء ثم يقول . إذ ما ذنب هذا الجثمان المسيحي في التراب
تحت القبة المهديّة يفصل رأسه عن بدنه فحمل الرأس كرمز انتصار .
ويقدم بالبدن التعاس في النيل بأمر السردار وتهدم القبة .

ومن واجبنا وقد مضت كل هذه السنين الطويلة أن نتساءل الآن
هل كانت الثورة المهديّة أمراً لا مفر من حدوثه ؟ الواقع أن هذه الثورة
أمراً محتوماً وغير محتوم في آن واحد . فقد كانت هناك أسباب كثيرة
للثورة ومع ذلك فقد كان في الأمكان إزالة هذه الأسباب إذا أعطى
الإنسان شيئاً من اللباقة وحسن التصرف وبعد النظر فإن أهم هذه
الأسباب اطلاقاً فكان مباغته البلاد بضرورة إبطال الرق فوراً ودون
إمهال وذلك بطرق وأساليب هدامة ووحشية فكان الإلغاء — سياسة
إلغاء الرق بالسيف والنار — بمثابة حرب صليبية هو جاء ومطاردة صارمة
تشييع الرعب في النفوس والفرع في القلوب . وكان (الإلغاء) كارثة
وزادت المحنة وعظمت البلوى حينما شاع في طول البلاد وعرضها مقتل
سليمان الزبير وأعمامه غدرا وهرون والصباحي وأخبار الفتك بالجلالين
العزل وسبي نساءهم في دارفور وفي كردفان على نحو ما تقدم ذكره وحدث
ذلك كله مدة حكم غردون عندما كان حاكماً عاماً على السودان بين عامي ١٨٧٧ ،
١٨٧٩ فامتلات النفوس بالحق والحق والخوف والفرع الممزوج بالحزن

والحسرة وضج أهل السودان بالشكوى وعلت صيحات الاستنكار في كل مكان وصارت البلاد تغلي كمرجل على وشك الانفجار فكنت أينما سرت ترى قلوبا مجروحة وأصواتا مبحوحة ودهشة عصبية بادية في الأيدي ومرتسمة على الوجوه وكنت حينما قصدت تجد السودانيين المشردين من فلول جيش سليمان وزملائه يهيمون على وجوههم سادري البصر ، خفيفي الخطى ، كأنهم يشعرون بثقلهم على الأرض - ويلوذون في أطراف الأماكن النائية كأنهم يشعرون بثقلهم على الناس يتنفسون خلسة كأنهم يشعرون بتطفلهم على هواء غيرهم - لا يلقون غير نظرات الاحتقار ، ولا يصادفون غير بسيمات السخرية والاستهزاء فهم من الناس يغرون وإلى أنفسهم يهربون . يأكل الأذى قلوبهم وتحرق الأنان العميقة ضلوعهم ويبدو الحزن على الوجوه حزنا تسوده الدهشة والذهول ينم عن استسلام صاحبة لأحكام القدر .

وكنت ترى في كل مكان الناس يتكلمون بصوت خافت - أنفاسهم متقطعة يستبد بهم اليأس وكانهم في مأتم وكانت أرواح (الشهداء) من (الجلاية) الذين قتلوا وعذبوا وشرّدوا ما زالت ترفرف فوق الرموس وكان اشباح هؤلاء الضحايا ما زالت تطوف في كل مكان .

على أن هناك حقيقة ثابتة كثيرا ما أغفلها الكتاب والمؤرخون هي أن قتل سليمان الزبير والقضاء على قواته واحتجاز الزبير باشا نفسه في مصر ثم قتل الصباحي وهارون كان من أهم العوامل التي ساعدت على

نجاح المهدي ، ومكنت محمد أحمد من الامعان في دعوته ، وحشد جموع
السودانيين حول رايته ، وذلك لسببين . أولهما زوال « الشخصيات »
السودانية العظيمة من الميدان وهي الشخصيات التي أثبتت الحوادث أنه
كان بوسعها أن تتولى زمام القيادة في هذه الأوقات العصيبة ، وفي
استطاعتها أن تجمع حولها الآن المتدمرين والحائقين من التجار والجلالين
الذين صادر غردون على وجه الخصوص وأعوانه متاجرهم وأموالهم
وأرزاقهم ، وأوقع فيهم هو وأعوانه كذلك مقتلة عظيمة ، فانضم
الجلابون وعديدون من الاهلين على نحو ما شهدنا إلى الصباحي
وسليمان ، وهارون على اعتبار أن هؤلاء قادة حرب من المنتظر أن
يتم على أيديهم طرد الأجانب (الكفار) من البلاد بقوة السيف
والانتقام للاهليين من الشرور والآثام التي ارتكبتها الطغاة الباغون .
ولم يكن في مقدور محمد أحمد ، وهو الفقيه الذي بدأ دعوته من أول
الأمر ينشد مجرد الإصلاح الديني والاجتماعي ، وإحياء الملة ، أن يقود
حركة واسعة من أجل التحرير والخلاص ، تعتمد على أساليب العنف
والشدة . ومع أنه قد مر على هذه الحوادث الآن خمسون عاما وزيادة
فإنه ما يزال بعض عقلاء السودانين وحكائهم يذكرون أن من أهم
أسباب نجاح دعوة المهدي قتل سليمان وسائر الزعماء القادرين على
الكفاح ، واحتجاز الزبير رحمه باشا في القاهرة على وجه الخصوص .
وأما السبب الثاني وهو مترتب في الواقع عن السبب الأول فيتلخص
في أن الامام محمد أحمد استطاع استغلال الظروف الناشئة وقت ذاك

نتيجة لإعدام سليمان وأعمامه واستشهاد الصباحي وهارون وغيرهما استغلالا مكنهم من تحويل مجرى دعوته الأصلية من المطالبة بالإصلاح وإزالة المساوىء المتفشية إلى ثورة عاتية شعارها تخليص الدين نفسه من الأخطار التي صارت تهدد بزواله على أيدي الكفار الأجانب أمثال غردون ، وأمبلياني ، وجسي ، ومبسيداليا ، وليتون ، وسلاطين وغيرهم . ولم يلق محمد أحمد في إجراء ذلك التغير أية صعوبة . ذلك بأن فلول جيوش سليمان والصباحي وهارون ، وفلول الجلايين الذين (استشهدوا) منهم عديدون في أثناء النضال المستمر بينهم وبين رجال الحكومة صارت تضرب في الفياق والوديان على غير هدى . فتوق جماعاتهم إلى الانتقام ، وتطلب (قائدا) آخر و (مخلصا) ينضوون تحت لوائه ، يشن على الكفار القتل بحرا بالرحمة فيها ولاشفقة ، ويستأصل شأفتهم من هذه البلاد استئصالا .

وكان في هذه الظروف الدقيقة ، أن تعالت الصيحات من كل مكان بأن (الدين في خطر) وأن واجب القوم أن يعملوا متساندين متعاضدين لتخليص الدين من هذا الخطر وكانت هذه عبارات هزت المشاعر وانسابت في النفوس ، ونزلت بردا وسلاما على قلوب الجلايين ومعهم سليمان والزعماء الآخرين ، إذ وجدوا في الدفاع عن الدين غرضا شريفا تحتمه الفرائض على كل سوداني مسلم ، فهم لا ينضوون تحت لواء المهدي للانتقام وحسب مما لحق بهم من أذى على أيدي غردون والكفار بل ومن أجل تخليص الدين الحنيف ، والاستشهاد في سبيل الله . وسرت الدعوة لتخليص

الدين من الخطر الذي كان يهدده سريان النار في الهشيم ، فانضم الآن إلى صفوف المجاهدين كل أبناء السودان في الحضر والبادية على السواء أى كل أولئك الذين ذاقوا الأمرين في العامين اللذين قضاهما غردون حكاما أى « حاكم عام » وصار شعار الجميع في قومتهم (الدينية) الجديدة : (في سبيل الله) أى الجهاد من أجل تخليص الدين والاستشهاد في سبيل الله .

على أنه حدث والبلاد تغلي بالثورة على هذه الصورة من أقصاها إلى أقصاها ، أن غادر غردون باشا السودان . . . وعلى أثر تدخل الدول وعزل الحديوى إسماعيل ، وكان لذلك آثار خطيرة في السودان . فقد هيمنت على مصائر الوادى عند بداية الاحتلال البريطاني حكومة ضعيفة في القاهرة لم يمكنها التفرغ في شئون السودان تفريفا تاما يساعد على إخماد حركة المهدي قبل أن يستفحل خطرها . بل أن تدخل الإنجليز في شئون السودان في سنوات الاحتلال الأولى لم يلبث أن زاد المهدية قوة على قوتها . حقيقة عينت الحكومة محمد رؤوف باشا حكاما أى حاكما عاما على السودان بدلا من غردون ، وكان رؤوف رجلا محنكا . له من واسع الخبرة بشئون السودان - بفضل السنوات الطويلة التي قضاهما في الخدمة في القطر الشقيق - ما يجعل الانتصار على المهدية أمرا ممكنا . لو أن الامدادات الكافية وصلته من القاهرة من جهة ولو أن حرية العمل قد كفلت له . ولكن مخاوف الإنجليز من أن يستعيد تجار الرقيق والجلابون نشاطهم بعد ذهاب غردون سرعان ما جعلتهم يضغطون على حكومة القاهرة حتى ترسل أوامرها المشددة إلى رؤوف في ضرورة القضاء

على الجلايين ومطاردتهم دون هوادة ووجود رؤوف لزاماً عليه في هذه الظروف أن يبقى في مراكزهم أولئك الأجانب الذين عينهم غردون في مراكز الحكم والادارة فكان استبقاء هؤلاء من الاخطار الجسيمة . وفضلا عن ذلك فإن رؤوف باشا لم يحقق ما عقد عليه الآمال لتهاونه في معالجة دعوة المهدي وكان هذا التهاون خطأ جسيماً آخر ارتكبه رؤوف . وذلك كله في الوقت الذي أخذ رؤوف على عاتقه مطاردة الجلايين والاستمرار على سياسة السيف والنار التي بدأها غردون وأعوانه (الكفار) فوجد محمد أحمد في ذلك فرصة مؤاتية للامعان في نشر دعوته وتحريك الثورة الجامحة ضد الحكومة التي استعانت على حد قوله بأجانب وكفار في إنزال صنوف العذاب والفتك والإرهاق بالأهلين قاطبة . وقويت الصيحة (أن الدين في خطر) فكانت ترى السودانيون في كل مكان يرددون « الدين في خطر » وكيف لا يكون الدين في خطر وأنت ترى التصرائني يحكم مسلماً ويتحكم فيه وفي كل ما يملك !! يالها من مذلة وياله من عار كبير .

وعلى ذلك فقد نشط محمد أحمد في دعوته وصار يعزو ما حل بالناس من محن وكوارث إلى خطئهم في الدين وإهمالهم تعاليم الشريعة الغراء . ثم أخذ يكثر من ذكر الآيات القرآنية التي تحرم على المسلم طاعة غير المسلم ويشير بأن الله سبحانه وتعالى سوف يبعث رجلاً يصلح ما أفسده أعداء الدين . ويشيد حكماً أساسه العدل والمساواة المطلقة ويمحو المساوىء والمظالم التي ضاقت بها الدنيا وضج منها السودانيون . وأما هذا الرجل

فهو المهدي المنتظر. ثم أعلن محمد أحمد أنه (المهدي المنتظر) ومن شك في مهديته كفر وما أن أعلن مهديته حتى أقبل الناس عليه يعلنون إيمانهم الصادق بمهديته ويمنون بالنفس بالخلاص مما هم فيه على يديه . وصاروا يتربصون قائلين :

« بشائر الخير إجت لنا . بظهور المهدي واليما »

ولما نادى المهدي بالعصيان والثورة والامتناع عن دفع الأموال المطلوبة - مال الميرى - علت الصيحات في كل مكان :

« عشرة في تربة ولا دفع الطلبة »

وكان مما أيدالدعوة وزاد في مكانة المهدي ورفعة شأنه انهزام القوات الصغيرة التي أرسلها محمد رؤوف باشا للقبض على محمد أحمد وإخماد الحركة وهي ماتزال في مهدها .

فتوالت انتصارات المهدي على جند الحكومة واضطر رؤوف باشا إلى طلب النجدة من مصر ولكن الثورة العراقية في مصر صرفت حكومة القاهرة إلى التفكير جديا في أمر ثورة المهدي الخطيرة واكتفت بأن استدعت رؤوف باشا وعينت بدلا منه عبد القادر باشا حلي حكمداراً على السودان .

وما كاد عبد القادر يصل إلى الخرطوم حتى حصنها وجند العساكر من السودانيين . وخفف عن الأهالي ما كانوا يشكون منه وفك حصار سنار ونكل بزعماء الثورة وحمل علماء الدين على نشر الرسائل في تكذيب المهدي وادعائه وضيق على أنصاره الخناق وسد عليهم المسالك ، ثم حاصر المهدي وأنصاره في كردفان وهي منطقة صحراوية - كان من رأى

عبد القادر باشا أن حصارهم فيها وقطع الموارد عنهم كفيل - بمرو
الزمن - بأن يقضى عليهم جميعا بسبب الجوع فلا تلبث نار الثورة أن
تخمد جذوتها . وادرك عبد القادر نجاحا ملحوظا فصار المهدي يبتهل إلى
الله في جميع صلواته قائلا : « اللهم يا قادر تسكفينا بطش عبد القادر » .
ومن الروايات الذائعة في السودان أن الإنجليز عندما علموا بنجاح عبد
القادر غضبوا ووشوا به لدى الخديوى زاعمين أنه يريد الاستقلال
بالسودان . لا سيما وأن العراقيين هم الذين عينوه في هذا المنصب . . .
فاستدعاه الخديوى وكانت مصر في ذلك الحين في قبضة الاحتلال البريطاني

. . .

وعين الخديوى علاء الدين باشا حاكما إداريا وعين سليمان باشا
نيازى قائدا عسكريا - في الظاهر . وهكس باشا قائدا عسكريا له السلطة
الفعلية على ١٢٩٠٠ جندي من فلول جيش عرابي وخرج هكس لمحاربة
المهدي في كردفان على رأس هذه الحملة الكبيرة فكان نصيب هكس الهزيمة
الماحقة في صحراء كردفان وسقطت المهمات والأسلحة والذخائر في
أيدي المهدي غنيمة باردة . وعندئذ رأت الحكومة الانجليزية أن تعين
غردون باشا حكاما على السودان وأن يعهد إليه بإخلائه . . .
فانظر كيف تمت فصول الكارثة على يديه !!

قبل أن يصل إلى بربر أبرق غردون إلى مديرها حسين باشا خليفه بأن
ينشر في طول البلاد وعرضها أن مصر قد تخلت عن السودان وأنه قد
عين واليا مفوضا على السودان يتصرف في شؤنه كما يريد . . . وأنه

أى غردون قد ولى محمد أحمد سلطانا على كردفان ولقبه بصاحب العظمة
وأنه سيعزل كل الموظفين . ويولى نظار القبائل والعشائر حكاما . وأنه
أعفى السودانيين من الضرائب المتأخرة لغاية سنة ١٨٨٣ كما أعفاهم من
الطالبة مدة سنتين من تاريخ وصوله ، وأنه سيخفض الضرائب إلى نصف
ما كانت عليه وأنه ألغى كل الأوامر الخاصة بمنع الرق وأباح الاتجار
به وفضلا عن ذلك أرسل غردون من كورسكو هدية ثمينة مع رسالة إلى
محمد أحمد ثم كلف حسين باشا بإرسال الرسالة والهدية مع رسول خاص
إلى عظمته .

وعند وصول غردون إلى بربر جمع العمدة والنظار وألقى عليهم
خطابا حوى أنباء كل ما تقدم ثم اردف قائلا :

« خلاص . حكومة الخديوى انتهت من السودان . وكل من يرغب
فى الذهاب إلى مصر يرسل على نفقة الحكومة . »

ثم أمر بفتح الطريق بين بربر وكردفان . لم يكتف غردون بما
فعل بل أعلن أنه يعتزم إرجاع السودان إلى الحال التى كان عليها
قبل الحكم المصرى - وعندئذ نصحه حسين باشا خليفه بالعدول عن
هذا العزم قائلا : « ولو أن القبائل متنافرة ولا يربط بينها رابط إلا
أنها سوف تنضم إلى المهدي فى آخر الأمر . » ولكن غردون لم يأخذ
بنصيحة حسين خليفه باشا .

وفي بربر أصدر منشورا أمر بأن يلصق على أبواب المديرية وباب الضابطية وفي شوارع المدينة قال فيه « أنه حضر بقصد اعاده العساكر المصرية إلى مصر - وأمر بفتح الطريق بين بربر وكردفان - وكان مغلقا بسبب الثورة - وأن الجناب العالي الخديوى قد ترك السودان لاهله . الخ » فأخذ الناس يهاجرون إلى المهدي أفواجا أفواجا بعد فتح الطريق وبعد سماع تصريحات غردون وكان من جملة من هاجر في مبايعة المهدي والقاضى محمد الخير « الذى عاد وفتح مديرية بربر فيما بعد باسم المهدي .

وعند وصول غردون إلى الخرطوم (١٨ فبراير سنة ١٨٨٤) استقبله على الشاطئ جمع من الجند وقناصل الدول ورؤساء الأديان والعلماء . وقصد غردون إلى مبنى الحكومة ودخل ديوان الحكمديرية وكان غاصاً بالعمد والاعيان والتجار فأخرج من جيبه فرمان توليته ودفع به إلى الشيخ المجدى فقرأه الشيخ على الجمهور بصوت جهورى ثم وقف غردون خطيبا فقال :

« بمقتضى هذا فرمان قد سميت حاكما مفوضا مطلق التصرف على السودان وسكانه » ثم أمر فجمعت سجلات الضرائب وأحضرت إلى الساحة العمومية ووضعت فوقها السياط وغيرها من آلات الضرب وأضرم فيها النار . فضلا عن ذلك فقد ذهب غردون إلى السجن وأطلق سبيل الجميع ، ما عدا القتلة ، ووزع منشورا على جميع سكان الخرطوم وضواحيها جاء فيه ما نصه « يا أهالى السودان إعلموا بأن راحتكم هى

غاية ما نرجوه وبما أتى أعلم علم اليقين أن إبطال تجارة الرقيق قد ساءتكم وهالككم ما وضعته الحكومة عليكم من قصاص وعلى من يزاو لها من تعذيب وغير ذلك مما صدر من الأوامر العالية بشأن تأكيد الغائها فقد رأيت التماسا لراحتكم أن أبطل كل تلك الأوامر وأمنحكم الحرية التامة فلا يعترضكم أحد في اتخاذ الرقيق لخدمتكم . ثم وزع منشورا آخر قال فيه : (١)

« يا أهل السودان قد فصل السودان عن مصر فصلا تاما فجعلت محمد أحمد المهدي سلطانا على كردفان وقد جئتكم حاكما مفوضا على السودان وألغيت الأوامر الصادرة في منع الرقيق وأعفيت عن المتأخر من الضرائب لغاية سنة ١٨٨٣ وعن الضرائب سنتين في المستقبل وسأجعل حكومة وطنية من أهل البلاد ليحكم السودان نفسه بنفسه ولقد نذبت الشيخ عوض الكريم بك أبوسن ليكون مديرا على الخرطوم بدلا من على بك جلاب الذي رفته » .

(١) عجب هذا التناقض من غردون !! لم يعين خلفا لصموئيل بيكر من قبل حاكما لمناظرى خط الاستواء لإبطال تجارة الرقيق ؟
— أيسالم غردون ملاش عليه بالامس حربا عوانا وباسلوب هدام وحشى ؟
— لم يقيم غردون في السودان حياة كلها رعب وفزع من أجل مصادرة الرقيق ؟

— هل ارتاحت إنجلترا لهذا النبأ؟ وهل حركت ساكننا لهذا الامر الخطير؟
— هل احتجت جميعية ابطال الرق ؟ وهل نشطت الدول وحركت ساكننا؟
لقد وقف مجاس العموم البريطانى بجانب غردون وحيد عمله ودافع عن سياسته وردوها إلى مقتضيات الموقف ونزولا على حكم الظروف المحلية وهم الذين كانوا بالامس ينددون بالابطاء فى اباحة الرقيق . . . ؟ !!

وأصدرت حكومة غردون منشورا رسميا وزعته في أنحاء البلاد
خوفاه أن الجنود البريطانيين أطفأوا ثورة أحمد العرابي في مصر فاستخدم
المهدي محتويات هذا المنشور في أغراضه وعلق عليه شرحا من عنده وأذاعه
في طول البلاد وعرضها ومن قول المهدي في هذا المنشور أن حكومة
مصر الإسلامية حاربت الانجليز حربا دينيا صليبية واستولوا عليها
وبذلك سقطت مصر في يد الانكليز وقبض على كبرائها وأبعدوا عن
بلادهم فصدقت الأهالي قول محمد أحمد لأن ما ذكره لم يكن سوى تأييد
لأخبار الحكومة الرسمية .

وبعد أيام فرضت ضريبة على أصحاب الأملاك والخرف وهي
ضريبة (المردان) أى تقديم الشبان الأرقاء لادخالهم في سلك الجندية
فكان على الأهليين أن يقدموا إثني عشر الف من الشبان الرقيق وكان
ثمن الأمرد حوالى عشرة جنيهات فلما سمع النخاسون بذلك رفعوا ثمن
الأمرد إلى الضعف . فذهبت هذه الضريبة بما كان متبقيا من مال قليل
لدى أهل الخرطوم . تبع هذه الضريبة فرض ضرائب أخرى دفعها أهل
الخرطوم واعتقد هؤلاء أن هذه الأموال جميعا قد تسربت إلى جيوب
السادة من الموظفين .

وبما زاد الطين بلة أن أهل الخرطوم استيقظوا ذات صباح فوجدوا
شوارع المدينة مليئة بأوراق مكتوب عليها باللغات العربية والانجليزية
والفرنسية ديا أهل السودان عموما وأهل الخرطوم خصوصا قد امتولت

حكومتنا البريطانية على حكومتكم المصرية فاطلبوا لأنفسكم الحرية —
الامضاء — رجال بريطانيا العظمى .

فارتاع الناس لهذا الخبر المشؤم وبينما هم يتدبرون معنى ما جاء في
هذه الأوراق وإذا بمشور آخر يخرج عليهم ممهورا بامضاء كبير رجال
الحكومة الانكليزية في مصر يقول : إن حكومة جلالة السلطان عبد الحميد
لم تعد قادرة على تحمل نفقات حربها مع روسيا ولذلك باعت قسما من
أملأها التابعة لمصر وهو السودان المصري : لحكومة جلالة الملكة
فيكتوريا وتقاضت ثمنها لذلك خمسين ومئتين مليوناً من الجنيهات وشروط
البيع أن السودانين ليسوا من أحرار المسلمين بل هم زنوج أرقاء تأخذهم
الحكومة الانكليزية وتبيعهم في أوروبا والهند وغيرهما من بلاد البيض
حتى إذا أمسكتهم حكومة إنجلترا جميعاً وأنفذت فيهم ما تشاء وخلت
بقاعهم من بني جلدتهم أرجعت الأرض إلى حكومة جلالة السلطان ، أما
حكومة جلالة الملكة فتعترض على أن السودانين ليسوا بأحرار ولا
مسلمين ولذا أرسلت مبعوثين من قبلها ليشاهدوا بأعينهم هل القوم كما
تقول حكومة الآستانة التي يعدونها قدوتهم دينياً وسياسياً أم الحقيقة
أن ذلك ناشئ عن حيف الاتراك وبغضهم للجنس العربي الذي منه
السودانيون والأمل وطيد أن يكون هذا القول صحيحاً وهو رأى حكومة
إنجلترا .

(وحمل هذا المنشور قوم من السياح الانجليز بعضهم كثير من

مأجوريهم وأخذوا يطوفون في أنحاء البلاد ويحادثون الناس ويعطونهم المنشورات ولسوء الحظ كانوا يلاقون قبولا والاهالي يصدقونهم كأن هذا المنشور منزل من السماء وكأن حامله من الملائكة الطاهرين (على حد ما جاء بمجموعة جريدة الأهرام سنة ١٨٩٦ صحيفتى ١٨٥ ، ١٨٦ . واستغل محمد أحمد هذا المنشور وكتب منشورا من عنده حمل فيه على الأتراك حملة منكرة كان قصده منها إبطال نصائح العلماء لأهالي السودان لا سيما نصيحة استاذ السعيد محمد شريف نور الدايم الذى كتب كتابة كان لها تأثير حسن أبان فيها أن أمام المسلمين الذى يجب طاعته هو أمير المؤمنين السلطان عبد الحميد وسمو الخديوى محمد توفيق نائبه على مصر والسودان وأن طاعتهما واجبة على المسلمين .

مضت الأيام سريعا والحال فى الخرطوم تزداد سوءا وعمد غردون إلى إرسال وكيله استورت بك فى باخرة نيلية إلى النيل الأبيض لاشاعة الطمانينة فى النفوس ويعرف الأثر الذى أحدثته منشورات غردون وصحب استورت فى هذه الرحلة الشيخ عبد الرحيم شيخ الدويم والشيخ عبد القادر قاضى الكلاكلة وغيرهما من أعيان البلاد . فلما وصلوا الدويم وجدوا الثورة مشتعلة بقيادة أحمد الكاشف وعلى ذلك فإنهم ما كادوا يقتربون من مكان الثوار حتى بادروهم هؤلاء باطلاق الرصاص عليهم فبنقلهم إلى الخرطوم .

ثم ذهب الشيخ عوض السكرىم بك أبوسن إلى الجزيرة ليرى تأثير

منشورات غردون في نفوس الناس . فلم يعد إلى الخرطوم بل أرسل ولده « على الهد » ليخبر غردون بأن منشوراته كانت بمثابة صب الزيت على النار . وإن الثورة مشتعلة في كل مكان . وأن هذه المنشورات لم يكن لها من أثر سوى إظهار عجز الحكومة وحمل الأهالي الذين كان ما تزال لديهم بقية من أمل في هذه الحكومة على تركها والانضمام إلى المهدي قبل فوات الفرصة .

وعند ما طلب غردون من الجعليين والدناقلة والشايقية وقبائل النيل معاونه الحكومة امتنع هؤلاء عن تأييده بسبب قتل سليمان الزبير وأعمامه وهدر دمائهم ودماء ذوى قرباهم كما ذكروا له ما فعله من قبل مع الجلابة ومصادرة أموالهم وقتلهم في خط الاستواء أولا ثم هدر دمائهم ثانيا في دارفور وكردفان كما سبق بيانه وكما أثبتته سلاطين باشا (في كتابه السيف والنار في السودان)

وهكذا وصل غردون باشا بسوء تصرفه إلى حالة من الخروج خطيرة أصبح معها في هم مقيم وندم أليم . فالثورة متأججة في جميع الجهات والطرق مسدودة — طريق بربر وطريق سواكن — يسيطر على الطريق الأول محمد الخير وعلى الطريق الثاني عثمان دقنه . وعندما اشتدت بغردون المحنة لم يجد مخرجا من ذلك كله إلا بالالتجاء إلى غريمة الزبير باشا . لأن الزبير فضلا عن علو نسبه على نسب محمد أحمد فهو معروف عند أهل السودان كافة بالشجاعة والكرم وحسن السياسة وأهل الخرطوم

وضواحيها من أهله وأنصاره ومريديه . وله أفضال عدة على كثير منهم منذ أن كان حاكما على بحر الغزال ودارفور .

والحقيقة أن الزبير باشا كان رجل الساعة فهو النذ المتفوق على محمد أحمد بل ويفوقه قدرة ومكانة . وفي استطاعته أن يجمع جميع القبائل حوله فتمعلاوا كلمته يقيناً على كلمة محمد أحمد المهدي . فبعث غردون يطلب ارسال الزبير إلى الخرطوم حتى يوليه على السودان بشروط معينه (وهذه الشروط وارده بتاريخ السودان تأليف نعيم شقير) ولكن الحكومة الانكليزية رغم الحاح غردون والخديوى وكرومر رفضت ذلك رفضاً باتاً بدعوى أن جمعية إلغاء الرق لم توافق على إعادته إلى السودان . ومن ذلك الحين بات مصير غردون أمراً مفروغاً منه فإنه سرعان ما دارت الأيام دورتها بعد ذلك ، وهبت العاصفة فهاجم الدراويش على الخرطوم — وسقطت عاصمة السودان في أيديهم ، فكان القتل والتشريد وكان السبي والسلب ، ولقي غردون حتفه ، وقتل من معه من الابرياء .

وبسقوط الخرطوم سقطت السودان في قبضة المهديين (سنة ١٨٨٥) وبدأ الانجليز يفسكرون من جديد في خير الوسائل التي تمكنهم من حجب خيوط مؤامرتهم ليس فقط لانهاء حكم المهديية بل — وكان ذلك من أهم أغراضهم — ولاخضاع السودان لسيطرتهم والاستثمار بالنفوذ الاعلى في حكومته على نحو ما أيده الحوادث بعد ذلك بسنوات قليلة .

محتويات الكتاب

صنعة	الموضوع
١	تقديم الكتاب بقلم الدكتور محمد فؤاد شكرى بك
١٠	توطئة الكتاب بقلم المؤلف
١٨	الفصل الأول — التركية السابعة
	فتح السودان بباء على دعوة من أهله . ضم السودان لمصر واعتياره وحدة مشتركة . تقدم السودان نحو المدينة والحضارة والعمران . اشتراك الأهلىن فى الحكم .
٤١	الفصل الثانى — التدخل الانجليزى
	الرواد الأجانب واكتشافهم . تدخل الانجليز بحجة أبطال الرق . خلق الفتن واثارة الشعور . استئثار الانجليز بالادارة .
٥٠	الفصل الثالث — مطاردة الجلايين
	قتل سليمان بن الزبير باشا وقتل أعمامه غدرا بعد التسليم لجسى باشا . فرار رابح الزبير إلى الغرب . نشاط غردون باشا . أعمال غردون التعسفية . دور المرأة فى الثورة واستنهاض الرجال للأخذ بالثار .
٨٢	الفصل الرابع — أبطال الرق ومحاربة الاسترقاق
	تمهيد . تاريخ العبودية والرق . الرق فى مختلف الأديان . الرق فى الولايات المتحدة . الفوارق اللونية فى أمريكا . منشأ الدعوة لأبطال الرق . حرب الشمال والجنوب من أجل أبطال الرق . المشاكل الجنسية فى أمريكا وأفريقيا . الاندماج الجنسى بين شعوب الوادى . كلمة ختامية .

الموضوع	صفحة
الفصل الخامس — سيرة الزبير باشا رحمة	١١٢
نشأة الزبير باشا . ممارسته للتجارة . مشاركته لأبي عموري المصري . فتح بحر الغزال ودارفور . استدعاء الخديوى له . عودته للسودان . شجاعته المختارة .	
الفصل السادس — سيرة الامام محمد أحمد المهدي	١٢٠
نشأة المهدي . ميله للطريقة السمانية وتهجده . اتصاله بالشيخ القرشى . اتصال عبد الله التعايشى به . تجواله فى البلاد واتصاله بتجار الرقيق وتأيد هؤلاء لدعوته . ادعائه المهدية .	
الفصل السابع — الثورة المهدية	١٢٩
فذلكه . من هو السوداني . المهدي ، المخلص ، الفادي ، المسيح قديما . ثورة المصريين القدماء من أجل الخلود . الثورة المهدية من أجل الدين . أنصار المهدي . هل كانت الثورة ضرورية استقالة غردون باشا . تعيين رؤوف باشا . تعيين عبد القادر حلى باشا . أعماله استدعاء عبد القادر باشا لمصر . تعيين علام الدين . تعيين هكس باشا حاكما عسكريا وهزيمة . تعيين غردون من قبل الدولة الانكليزية واليا عاما على السودان . اخطاء غردون وتصرفاته . سقوط الخرطوم فى يد المهدي .	



i 144885503

B 12894394

Date Due

DT
103
J25x
c.1

1978

MAR -



1 0 0 0 0 0 8 4 6 2 2

DT

108

.J25

1948